الفصل الثاني

الفصاحة والبلاغة

قبل أن نمضي في طريقنا نتوقف لنتساءل ما معنى الفصاحة ؟ وماذا يراد من البلاغة ؟ هل هما وصفان لموصوفين مختلفين ، كما يفهم من الدلالة اللفظية لكل منهما ؟ أم أنهما وصفان لموصوف واحد حتى مع اختلاف الدلالة اللُّغوية لكل لفظ منهما ؟ إذ إنهما يلتقيان معًا عند إظهار المعنى ، وكشفه ، وتجليته ، وتفسيره ، والإبانة عنه وعليه فيكونان في اصطلاح أهل الفن البياني شيئًا واحدًا .

إننا حين نذهب إلى المصادر لنستفتيَ أصحابَها ، فإننا نلتقي أول ما نلتقي بأبي هلال العسكري الذي يرى أن (البلاغة) مِن بلَغْت الغاية إذا وصَلْت إليها ، وانتهيت عندها ، وبلَّغتها بتضعيف اللام غيرك ، وهكذا تصبح البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع ، فيفهمه فهي إذن من صفة الكلام لا من صفة المتكلم .

أما الفصاحة فهل ترجع إلى قولهم : أفصح فلان عما في نفسه إذا أظهره إنّ قول العرب أفصح الصبح إذا أضاء ، وأفصح اللبن إذا انجلت رغوتُه فظهر ... وأفصح الأعجمي إذا أبان بعد أن لم يكن يُبِن ويفصح يعطي هذا المعنى ويوثقه وعلى هذا الفهم فتكون الفصاحة والبلاغة وصْفيْن لموصوف واحد ، مهما كان بينهما من اختلافٍ في الدلالة اللغوية ؛ إذ إنهما يرجعان إلى معنى واحد وهو الإبانة عن المعنى والإظهار له .

على أن هناك من يرى أن الفصاحة تمام آلة البيان فهي إذن تتعلق باللفظ

دون المعنى ؛ لأنها أداتُه والوسيلة إلى كشفه وإظهاره ، ذلك أن المطلوب من الآلة هو تمام الصحة والسلامة لتؤدي وظيفتها والبلاغة ترجع إلى المعنى وتتشبث به ؛ إذ إنها إنهاؤه إلى القلب وتوصيلُهُ إليه ، فكأنها مقصورة عليه لا تتعداه إلى غيره ، ولا تتجاوزه إلى سواه ، وعلى هذا فتكون الفصاحة من خصائص اللفظ والبلاغة من خصائص المعنى ، ومن ثَمَّ يكون الموصوف بهما مختلفا فهما مختلفان .

غير أننا نتوقف لنتساءل ألا يمكن أن تلتقيَ البلاغةُ مع الفصاحة في الكلام الواحد فيكون حينئذ بليغا فصيحًا ؟

والجواب نعم ذلك أن الكلام إذا سلمَت أداتهُ ، وصحَّت آلتُه ، وبانت حروفه ، وظهرت مقاطعه ، ووضح معناه ، وبلغ المتكلم به قلب المخاطب ، وأوصله إليه فإنه ساعتها يكون فصيحا بليغا ؛ ونصُّ عبارة أبي هلال التي جَهَرَ بها في هذا الشأن : « أن يُسَمَّى الكلام فصيحا بليغا إذا كان واضح المعنى ، سهل اللغة ، جيِّد السبك ، غير مستكره فجّ ، ولا متكلف وخم ، ولا يمنعه من أحد الاسمين شيء ، لما فيه من إيضاح المعنى وتقويم الحروف» [(١)] .

وليس من المقبول أن نمضي الآن ونسرع دون أن نعطف على ابن سنان الخفاجي وما أثاره في مؤلَّفه الشهير (سر الفصاحة) لنرى ماذا يقول فضلا على أن اسم الكتاب يلتقي مع موضوعنا الذي نتناوله بالأخذ والعطاء ، فإذا كنا نتحدث عن معنى الفصاحة والبلاغة فإن المؤلّف الذائع يأخذ بيدنا ليدلنا على السِّرِّ . ومن ثَمَّ وجب علينا استنباؤه واستنطاقه حتى يفضي لنا بخبره ... فهو يضع للفصاحة حَدًّا ينبيء عن الظهور والبيان ومنها أفصح اللبن إذا انجلت رغوته ، وفصح فهو فصيح ويوثق كلامه هذا بقول الشاعر :

وَتَحْتَ الرُّغْوَةِ اللَّبَنُ الفصيحُ

---

(١) الصناعتين صـ ١٧، تحقيق دكتور مفيد قميحة دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان .

ويقال أفصح الصبح إذا بدا ضوؤه وأفصح كلُّ شيء إذا ظهر ووضح ثم تـراه يفرق بين الفصاحة والبلاغة حين يجعل من الفصاحة وصفا للألفاظ ويجعل من البلاغة وصفا للألفاظ والمعاني ، ومن ثَمَّ لا يكونان عنده وصفين لموصوف واحد ومن هنا لا يقال في كلمة واحدة إنها بليغة ، وإن قيل فيها إنها فصيحة وعليه فيكون كل كلام بليغ فصيحا وليس العكس ومثّل لذلك بالكلام المسهب الذي لا يقتضيه الموقف ، ولا يتطلبه المقام ، وقد خلَتْ وسلِمت كل كلمة من كلماته من العيوب التي تفقدها فصاحتها وحسنها فإنها تعد من الحسن الفصيح وإن كانت غير محسوبة على الكلام البليغ الذي يرفضها ، ولا يقبل بها .

ولقد وضع الرجل مقاييس جمالية لحسن الكلمة وارتقائها ، حين تكون مفردةً كما وضع مقاييس لها مجاورة لغيرها منظومة مع هذا الغير ، وبذلك يكون ابن سِنان أول من فصّل القول في الفصاحة فيما أعلم ؛ إذ إنه قسّمها إلى فصاحة في الكلمة وإلى فصاحة في الكلام ، واشترط لتحقيق الفصاحة في كل منهما ما يحقق لها تلك الفصاحة .

في مجال الكلمة رأى أن تكون منظومة من حروف متباعدة في المخرج ثم ذهب إلى عالم الظلال والألوان ليتخذ منه دليلا على صحة وقوة دعواه إذ إنّ الألوانَ كلما اشتد التباين والتضادّ بينَها صعِدَت في مراقي الحسن والجمال قُدُما وأنت ترى أنه أخذ مما يقع في مجال الرؤية والبصر دليلا لما يدرك مما يقع في مجال السمع ؛ إذ إنه دلل من خلاله على أن الكلمة إذا نظمت من حروف متباعدة في المخرج كانت جميلة حسنة ، ومما تجمُلُ به الكلمة وتزدان أن يكون لها وقع حسَنٌ في السمع ومزيّةٌ على غيرها حتى وإن تساوت معها في الحروف المتباعدة .

وإذا كانت هذه هي رؤيته بالنسبة للكلمة ، فإن نظرته بالنسبة للكلام المنظوم لكي تتحقق له الفصاحة أن يخلو من التعقيد اللفظي ، والمعنوي ومخالفة القياس ، ومن تنافر الكلمات مع فصاحة المفردات .

وإذا كانت هذه نظرة ابن سِنان فإنّ ابن رشيق يُرْجع الفصاحة والبلاغة معا إلى اللفظ والمعنى ذلك أنه يجعل ما بين اللفظ والمعنى من علاقة كالذي بين الروح والجسد من تلك العلاقة نفسها فاللفظ جسم ، والمعنى روحه وارتباطه به ، كارتباط الروح بالجسد في القوة وفي الضعف .

وعبد القاهر يرى أن الفصاحة والبلاغة لفظان مترادفان فهما وصفان لموصوف واحد ، يدلان عليه ، ولا تفاوت بينهما في تلك الدلالة ويجعل منهما نظيرين للبيان والبراعة ، وما يشاكلُ كُلَّ ذلك ويبين أنّ الفصاحة والبلاغة وما يجري مجراهما مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة وينسب فيه المزيّة والفضل إليه دون المعنى معناهما وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة ثم تبرُّجُها في صورة هي أبهى وأزين ، وآنق وأعجب ، وأحق بأن تستولي على هوى النفس ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ، ويختار له اللفظ الذي هو أخص به ، وأكشفُ عنه ، وأتمُ له ، فأنت تراه وهو يُسَوّى بين الفصاحة والبلاغة فيما يؤديه في صورة تعبيرية هي أبْهى وأزهى ولا سبيل إلى تحقيق ذلك إلا بأن يؤتى بالمعنى من الجهة التي هي أصحّ لتأديته ويختار له اللفظ الذي هو أخص به ولقد ذهب الإمام عبد القاهر إلى أن البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة لا ترجع إلى اللفظ وإنما ترجع إلى النظم وكيفيّات الصياغة وصورها وخصائصها ، وعليه فلا يكون هناك للفظ المفرد وزن في فصاحة أو بيان أو بلاغة ، وحين يوصف بشيء من ذلك فإنما يوصف به لكونه دالاّ على معناه .

فاللفظ المفرد لا يَفْضل زميلا له من الألفاظ المفردة إلا بأحد أمرين أحدهما : أن يكون مستعملا مألوفًا ، والآخر : غريبا وحشيًا وأن يكون خفيفا على اللسان سهلا عند النطق به والآخر على خلاف ذلك ، وهكذا تظل المفردات في مرتبة واحدة ليس لواحد فضل على آخر حتى يأخذ مكانه من النظم ، ويلتحم بما قبله وبما بعده ويوثق عبد القاهر كلامه بأن اللفظ المفرد

إنما تظهر مزيَّته من خلال وجوده في النظم ، حين يبين أن الألفاظ لا تظهر لها ميْزة إلا من خلال ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها وآية ذلك أنّك قد تقف أمام اللفظة الواحدة فتراها تروقك وتؤنُسك في موضع ، وتراها هي بعيْنها ثقيلة موحشة في موضع آخر ، والبراعة ترجع عند الإمام إلى النظم ؛ لأن في انضمام الكلمات بعضها إلى بعض وتوافقها وانسجامها وتلاحمها تكون المزية ويرجع الفضل أما الألفاظ من حيث هي ألفاظ مفردة فلا تفاضل بينها ، ولا تفاوت إلا على نحو ما بيناه .

بعد أن صحبنا الكتب التي نزعت منْزعا بَلاغيّا وحاولنا أن نقف على آراء أصحابها في تفسير معنى الفصاحة والبلاغة رأينا من خلال رحلتنا معها أن هناك من يسوّي بين الفصاحة وبين البلاغة فيكون المراد من أحدهما هو المراد من الآخر ، فهما وصفان لموصوف واحد ، مهما اختلفت دلالتهما اللغوية .

ورأينا من يلحظ اختلاف الدلالة اللغوية لكل منهما فيبنى عليها اختلافا في الدلالة الاصطلاحية وقد فسرنا القول في ذلك بحيث لم يعد هناك مجال للزيادة وقد ارتضى المتأخرون هذا الرأي الأخير ونحن نتابعهم على ما اختاروه .

قالوا : إن الفصاحة تطلَق في اللغة على معان كثيرة تنْبئ عن معنى الظهور والبيان . يقال : أفصح فلان عما في نفسه أي : أعرب عنه وأظهره وبيّنه ويقال : أفصح الأعجمي إذا خلُص لسانه من اللكنة واللحن ، وأفصح اللبن إذا ذهب عنه اللباء ، وزالت الرغوة ، وأفصحت الشاة إذا صفا لبنها عما يشوبه ، وأفصح الصبح إذا ظهر وعلا ضوؤه ومِنْه المثل : أفصح الصبح لذي عينين ، ويقال يوم مفصَح ، جليٌّ لا غيْمَ فيه .

وفي اصطلاح أهل الفن يختلف معناها باختلاف موصوفها وهو أحد ثلاثة الكلمة ، والكلام ، والمتكلم فيكون معناها هي ما يوصف به المفرد ، والكلام ، والمتكلم وعليه فأنت تقول هذه كلمة فصيحة إشارة إلى كلمة بعينها

«كالسحاب» وتقول : هذا كلام فصيح إشارة إلى مركب معين كقولك الله أكبر من كل كبير ، ويقال : هذا متكلم فصيح إشارة إلى متكلم معين .

وهذا التعريف على هذا النحو الذي هو عليه أثار جدلاً وووجه بعلامة استفهام تستفسر وتستخبْر لماذا أهمل التعريف المركب الناقص فلم يشر إليه؟ إذ قال في تعريف الفصاحة هي ما يوصف بها المفرد ، والكلام ، والمتكلم . والمركب الناقص ليس واحدًا من هؤلاء الثلاثة ؛ لأنه ليس بمفرد وهو ما قابل المركب ، وليس بكلام ؛ لأن الكلام خاص بالمركب التام إلخ ...

ومعنى هذا أنه لا يتسم بالفصاحة ، مع أنه منها في القلب والصميم .

والمقصود بالمركب الناقص ما لا يتحقق منه معنى يحسن السكوت عليه ولا مانع من أن يكون معنى قولهم : إن قولهم هذا مركب فصيح أي أن مفرداته فصيحة وعليه فيكون داخلا في فصاحة المفرد من غير تأويل وعلى هذا الأساس يتداعى الاعتراض ويتساقط ، ومن الممكن إدخال المركب الناقص تحت فصاحة المفرد على أساس التّعْميم في المفرد ليراد به ما ليس كلاما تامًا فيشمل المفرد والمركب الناقص . ومما يؤكد هذا أن المركب بقسميه الناقص والكامل لم يعهد إطلاق اسم الكلام عليه إلا بالحَمْل على المجاز المرسل أما إطلاق المفرد على ما ليس كلاما فحقيقة عرفية مثل إطلاقه على غير المثنى والجمع في باب (الإعراب) ومثل : إطلاقه على ما ليس مضافا ولا شبيها بالمضاف في باب (المنادى) ، وكإطلاقه على الجملة والشبيه بها في باب (المبتدأ والخبر) وإدخال المركب الناقص في المفرد حمل على (الحقيقة) وإطلاق الكلام على المركب مطلقا سواء كان تاما أو ناقصا (مجاز مرسل) والحمل على الحقيقة أولى وأحق من الحمل على المجاز ؛ لأنه خلاف الأصل ومما يدل على أن المفرد هنا في باب الفصاحة ما ليس بكلام مقابلته به كقول الشاعر :

إذا ما الغانيات برزن يوما ... وزججن الحواجب والعيونا

فيا ترى أين يكون موقعه وتحت أي نوع من أنواع الفصاحة يندرج فصاحة المفرد أم فصاحة الكلام ؟

هناك من أطاح بهذه الشبهة وبدّدها على أساس أن الكلام تتسع دائرته ليشمل المركب التام والمركب الناقص على حد سواء على سبي المجاز المرسل من إطلاق الخاص (المركب التام) وإرادة العام (المركب الناقص والتام) وبذلك ينقدح الاعتراض وعلى هذا فيكون موقع المركب الناقص في فصاحة الكلام .

ولكن إزالة الاعتراض على هذا النحو لَمْ يرق (السعد) ولم يعجبه ودفعه بما يفيد : إن العرب قالوا عن المركب إنه فصيح ، ولم ينقل عنهم أنهم وصفوه بأنه كلام فصيح . وإذا كانوا قد أثبتوا له الفصاحة فلا يستلزم هذا الإثبات وصفه بأنه كلام ومن ثَمَّ فإن إدخال المركب تحت فصاحة الكلام غير مسلم به وعلى هذا فيكون داخلا في فصاحة المفرد وإن كان مركبا .

والآن هل تابعت هذه المعركة الجدلية ؟ وهل أصغيت إلى دَوِيٍّ رحاها الدائرة ؟ إن كثيرا من الباحثين وأنا معهم لا يرون في مثل هذه المناقشات التي طالعتها الآن شيئا من الفائدة سوى إهدار الوقت ، وتشتيت الجهد ، وتبديد الطاقة فيما لا يثمر بحيث لو جمعت هذا وما هو على شاكلته ومثاله وألقيت به في مستنقع عميق بحيث لا يدري عنه أحد شيئًا لأرحت من هم ثقيل .

إن هذه المحاورات إن كان لها من فضل فهو ما ملأت به صدور المتحاورين المتصاولين من الصبر والمثابرة وتحمل ما يرهق ويضني في سبيل الحقيقة العلمية ، وتجليتها وكشفها ، فضلا عن هذا الترف العقلي ذلك أن متابعة الآراء وهي تتطاحن وتتصارع - والاستماع إلى ما يوجه أنصار كل رأي إلى أصحاب الرأي المخالف من تفنيد وتضعيف وقيام الطرف الآخر بالرد على في حسم وقطع هو متعة نفسية وعقلية معًا .

معنى الفصاحة

سبق أن توقفنا أمام مصطلح الفصاحة ومصطلح البلاغة ، وتابعنا الحوار الدائر من حولهما ، والعراك الناشب على أثر تحديد ماهيتهما هل هما لفظان يدلان على شيء واحد ؟ أم هما لفظان يدلان على شيئين مختلفين ؟ وانتهينا إلى أن من بين العلماء من لم يرتض التفرقة بينهما ، ومن بينهم من توقف أمام اختلاف المدلول اللغوي ، وأخذ منه سبيلا لاختلاف المدلول الاصطلاحي فخالف بينهما فيه . ونحن نمضي في طريق بحثنا على أساس التفرقة بينهما وإذا كنا قد حددنا المعنى اللغوي للفصاحة ، فإنها في نظر العلماء في البلاغة تكون وصفا للكلام ، وللمتكلم ، ولا تكون وصفا للكلمة إلا إذا أريد بها معنى الكلام «وكلمة بها كلام قد يؤم» .

أما فصاحة الكلمة : فتدور حول حلاوة إيقاعها ، وعذوبة رنينها ، وكونها خفيفة رشيقة ينطلق بها اللسان في لين ويسر من غير أن يتعثّر بها في الطريق أو يكبو ، ثم هي مع ذلك معروفة مشهورة جهيرة ، قد دارت على أفواه الأدباء ، وجَلْجلت بها حناجر الشعراء في مجالس الشعر ، ومنتديات الأدب ، لم تَتَخَطَّ الوارد في الاستعمال ، ولم تتجاوز المعهود المألوف لديهم .

إن اللفظة حين تتحرر من كل ما يرهقها ، ويضنيها عند النطق وأداء الكلام ، وفقدان الإلف عند التداول والاستعمال ، ومجانبة ورودها على خلاف ما ورد على الألسنة تصير كلمة خفيفة رشيقة ، تفيض رقة ، وتقطر عذوبة ، وتتحدّر على اللسان في سهولة ويسر ولين ، لا تعوق سيولتها عوائق ، ولا تعترض انطلاقتها وانسيابها عوارض ، وتنساب حروفها في هدوء داخل المسامع وتتجاور في موادعة وملاءمة ، وتآخ ، وتوافق وحب ، وانسجام وتلك هي الكلمة الفصيحة .

اقرأ قول الله تعالى : ﴿ طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (طه:١-٨) .

اقرأ هذه الآيات وأعد قراءتها مرة ومرات ، واصغ إلى همسها وتحدّرها ثم انظر إلى حروف كل كلمة فيها ، وهي تتلاقى وتتلاصق ، وإلى كلماتها كيف تتعانق وهي تتجاور ، وانظر إلى رنينها الأخّاذ والمتناسق وكيف خاطب الله - تعالى - حبيبه محمداً من خلال انتظام الحروف في الكلمات ، ومن خلال انتظام الكلمات في النسق القرآني على نحو من السحر يمتلك القلب ويخلب اللب والوجدان ودعْ تلك البلاغة العالية ، ولنذهب إلى وادي الشعر لننال قبسا من فصاحته .

ولنأخذ هذه الأبيات من عينيّة أبي ذؤيب الهذلي التي أنشأها بمداد من صبيب دم قلبه بعد أن فقد أبناءه الخمسة أو السبعة في عام واحد فكانت قصيدة سخية وغنية بمطالب العاطفة لدى هذا الوالد الثاكل يقول أبو ذؤيب في نسخة جمهرة أشعار العرب :

أَمِنَ المَنُونِ وَرَيْبِها تَتَوجَّعُ ؟ والدهرُ ليسَ بِمُعْتبٍ مَنْ يَجْزَعُ
قَالتْ أُمَيمةُ مَا لِجسْمِك شَاحِبًا مُنْذُ ابتُذِلتَ ومِثْلُ مالِكَ يَنْفَعُ ؟[1]
أَم مَا لجسْمِك لا يُلائِمَ مَضْجَعًا إلاّ أَقَضَّ عَلَيْكَ ذَاك المضجعُ[2]
فأجبْتُها : أمَّا لِجسْمي إنَّه أَوْدَى بَنِيَّ مِنَ البلاد فودَّعُوا
أودى بَنِيَّ فأعقبوني حَسْرة بَعْدَ الرُّقاد وعَبْرَةً مَا تُقْلعُ

---

(١) منذ ابتذلت : أي منذ ابتذلت نفسك ، ومات من كان يكفيك من بنيك .
(٢) أقضّ عليك : أي صار تحت جسمك مثل قضيض الحجارة وهي الحجارة الصغيرة .

سبقُوا هَوَيَّ وأعْنَقُوا لِهَواهُمُ فَتَخَرَّمُوا ولكلِّ جنبٍ مَصْرَعُ[1]
فغبرَت بعْدَهُمُ بعيشٍ ناصِبٍ وإخالُ أني لاحِقٌ مُسْتَتْبَعُ[2]
ولقد حَرَصْتُ بِأنْ أدافعَ عنهُمُ وإذا المَنِيَّةُ أقْبَلَتْ لا تُدْفَعُ

لقد عبّرت هذه القصة عن خفيّات الحس والشعور ، وترجمت في صدق عمّا يعتلج في قرارة فؤاده من هم وما يتردد بين جنبات صدره من حزن وأخذتني قصيدة هذا الشاعر إليها وأنا مهموم بفجيعته ، بعد فقده لأبنائه فكانت حاملة رسالة البُرَح والآلام ، ومبعث الأسى والشجن ، ومُثار اللوعة والحزن وكأني به وهو يُحسُّ أن كبده وقلبه كلاهما يسيلان على عينه .

أوْدَى بنِيَّ فأعقبوني حَسْرةً بَعْدَ الرُّقادِ وعَبْرَةً ما تُقْلِعُ

إنه يبحث عن أبنائه فلا يجدهم لقد واراهم الثرى وأصبحت يده منهم صفرا ولا يوجد في هذه الحياة من يعيش عيش الآمن في سربه المطمئن إلى وجوده ، ولا من يعرف ما يضمر له القدر بعد ساعة واحدة .

فغبرَت بعْدَهُمُ بعيشٍ ناصِبٍ وإخالُ أنّي لاحِقٌ مُسْتَتْبَعُ

اللهم لا عذر لنا في غفلتنا عن صروف القدر ، والاستراحة إلى موادعة الأيام ، ونحن نمضي على طريق محفوف بالمخاطر ، والدهر صائد ماهر يرمي بسهامه في كل زمان وفي كل اتجاه فلا يخيب ولا يطيش له سهم أبدا وأنت تقرأ هذه الأبيات التي سجلناها هنا فتجد ما أضمر هذا البيت ، وما أجنت هذه الجملة من نسج متلاحم ، وبناء متلائم ومعدن كريم ، ومن سهولة في النطق ، وجريان على اللسان ، وإيقاع رخي لا سماجة ولا ثقل ، ولا صعوبة ولا وحشية ولا غرابة ولا اضطراب لما جرى به اللسان العربي

---

(١) هوَيَّ : هَوَايَ على لغة هذيل : أي ماتوا قبلي وكنت أحب أن أموت قبلهم . أعنقوا : أي أسرعوا ـ فتخرّموا : أخذوا واحدا واحدا .
(٢) غبرت : بقيت ، ناصب فيه تعب ومشقة .

أرأيت إلى هذا الشاعر في البيت الأول أمِنَ المنون ؟ الذي عصف الموت بأولاده فاختطفهم اختطافا ، فتضعضع أمام هول الفجيعة ، وانخلع فؤاده أمام وقع المصيبة ، ينتفض وكأنه يستكثر على نفسه هذا التخاذل والهوان والانكسار أمام فجيعة الموتِ حتى لو كانت لأبنائه الخمسة أو السبعة كما ذكرت بعض الروايات ؛ إذ إن الموت يصبِّح الناس ويمسِّيهم ولئن كان فقد الأبناء محنة لكنه يريد أن يستقبلها على أنها محنة من محن البطولة ، لذا دخلت همزة الإنكار على المتعلق ولم تدخل على الفعل المضارع (تتوجع) أمن المنون وريبها تتوجع ؟

وفي قوله : (والدهر ليس بمعتب) وإيثار «معتب» على «يعتب» لبيان أن هذا حال الدهر ، وذلك دِيْدَنُه الذي لا ينفك عنه أبدا ، فهو لا يعتب في وقْتٍ دون وقت إنما هو معتب في كل الأزمان والأوقات ، ولذا حين أراد تنوع الحال واختلافها جاء بالمضارع في «يجزع» ؛ لأن الجزع لا ينسحب عليه الديمومة فليس يبقى في كل الأوقات ؛ إذ إن طول الجزع إذا لم يورث العلة ، ويخلف الداء فإنه جدير بأن يكدِّر العيش ، فلا يصفو حتى لا يكاد يرى المرء هذه الحياة إلا ظلامًا في ظلام ووحشة ، تتبعها وحشة على أن التصريع في البيت أكسبه إيقاعًا عذبًا ، ورنينا حلوا ، وموسيقى رخية .

أرأيت إلى الشاعر الواجد الثاكل وقد رماه الدهر فأصمى ، وعركه بالنُّوَب والمصائب فأردى ، تسأله صاحبته أميمة ما لجسمك شاحبا منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع بعد أن فقدت العائل ، وذوي المعين ؟ وكأنها تنكر عليه أن يكون على هذه الحال عزم قد تضعضع ، وقلبٌ قد تصدّع ، وقد كان من قبل صاحبَ جَنان لم يهن في يوم الروع وقوة لم تنخذل أمام شدة وعزم جبار لم يرتجف أمام مصيبة . إنها تستفسر مستنكرة بأقوى أدوات الاستفهام دلالة على الإنكار فقالت مستنكرة ما لجسمك لا يلائم مضجعا؟ وأثرت «قال» على «لِمَ» للدلالة على اللوم الشديد ، والإنكار الأشد ، والمؤاخذة الأقوى والأبعد ؛

لأن المانع من داخل النفس ، ومن أعماقها ، وهو ما يوجب اللوم على هذه الصورة وأنت ترى صورة الاستفهام واضحة الدلالة على هذا يصدع بها القرآن في إبانة ووضوح في ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (التوبة:٣٨) .

ولذا كانت الإجابة من الشاعر :

فأجبتها : أمَّا لجسمي إنّه ... أوْدَى بَنِيَّ منَ البلاد فودَّعُوا

أودى بني فأعقبوني حَسْرة ... بَعْدَ الرُّقاد وعَبْرَةً مَا تُقْلِعُ

إنها إجابة من صدر منفطر ، ومن قلب مشقوق ينزف ، من عينيه عبرات لا يملك أن يمسكها فيتركها تنهمر ، وتسح وتسيل ولا تقلع يسكن لمن يباكيه ، وينفر مِمَّن يعزّيه بعد أودعه بنوه تلك الحَسْرة التي تبدّدَ معها الحلم ، وتجهّم الواقع ، وأغطش الليل ، واعتكرت جوانب النهار ولم يملك إلا أن يلقي رأسه بين كفّيه بعد أن صار النعيم شقاء ، وأرمضت الحشا ، وذابت لفائف الصدر ، وتقرحت الجفون .

سبَقُوا هَوَيَّ وأعْنَقُوا لِهَواهُمُ ... فَتخرَّمُوا ولكلِّ جنْب مَصْرَعُ[1]

فغبِرَت بعْدَهم بعيشٍ ناصِبٍ ... وإخالُ أنِ لاحق مُسْتَتْبَعُ[2]

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم ... وإذا المَنِيَّةُ أقبلت لا تدفعُ

إنه يعلل لولعه بالبكاء الذي أفاض الدمع من عينه ، بعد أن أشعل اللوعة في صدره ، وأقام مناحة في نفسه ، وجعل في كل ذرة من جسده مأتما وشدة من هول المصاب .

---

(١) هويَّ : هَوَاي على لغة هذيل : أي ماتوا قبلي وكنت أحب أن أموت قبلهم . أعنقوا : أي أسرعوا ـ فتُخرموا : أخذوا واحدا واحدا .

(٢) غبرت : بقيت ، ناصب فيه تعب ومشقة .

سبَقُوا هَوَيَّ وأعْنَقُوا لِهَوَاهُمُ   فَتَخَرَّمُوا ولكلِّ جنْبٍ مَصْرَعُ

ولذا جاء قوله : (سبقو هوى) غير معطوف على ما سبقه لأنه كالبيان والتفسير والتوضيح له ، لكنه ربط (بالواو) بين الجملتين للجامع الذي يشد كلتاهما إلى الأخرى فالمتحدث عنه واحد ، ولذا يحسن الوصل ويزدان ويَجْمُل ، ثم يأتي الربط «بالفاء» والربط بها في قوله : «فتخرموا» مما يبيِّن سُرْعة النهاية فهو أجمل مصرعهم ، ونهايتهم التي اختطفهم الموت فيها بكلمة واحدة «فتخرموا» ولذا تراه يستعمل الفاء في كل ما يفيد سرعة التأثر بالأحداث التي لا تراخي معها في الزمن ولا تطاول ولا امتداد فليس المقصود بعدهم بزمن طويل متراخ .

وفي قوله :

فغَبرَت بعْدَهم بعيشٍ ناصِبِ

أعد قراءة هذا المقطع وبين لي ماذا ترى أنت في هذه المبالغة التي تبصرها في هذا العيش الذي ينصب ويتعب ؟ فالعيش الناصب إنما ينصب صاحبه ، فإذا تجاوز هذا الصاحب وتخطاه إلى أن صار العيش نفسُه ناصبا مرهقا متعبا مضنيًا فأنت أمام مبالغة تنفث السحر الحلال إذ تأخذ بيدك في لين وموادعة ورفق لتستشعر حالة عيش هذا الأب الذي رماه القدر هذه الرمية كيف كانت عيشته مع أولاده وكيف أصبحت بعد فقدهم ؟

والتعبير بقوله : «فغبرت» تصوير لحاله البائسة المغبّرة بعد فقد بنيه فهي تعبير عن نفسه الآسية ، العابسة ، المتعبة بعد أن طوى الموت أبناءه وضنّ بهم على الحياة ، فلا البقاء بعد فقدهم صار كالبقاء ، ولا العيش من بعدهم أصبح كالعيش ، إنه والحال على هذا الشأن قد اصطف في طابور الموت ليلحق ببنيه «وإِخَالُ أنيّ لاحق مستتبع» إنها الحكمة التي تتفجر على ألسنة من اختارهم الله ـ عز وجل ـ ليكونوا موضع بلائه ؛ إذ هم أمثلة للتقلب على جمر الغضى لأنهم عبَرٌ ومُثُلٌ .

وفي قوله :

ولقد حَرَصْتُ بأن أدافعَ عَنْهُمُ وإذا المَنِيّةُ أقبلت لا تُدْفَعُ

إنها الدنيا ما أذاقت حلواً إلا وأعقبته مُرّا . وهكذا حرص بأن يدفع عن بنيه سهام القدر ، فكانوا ضحاياه . وهكذا فالدهر إذ أسعد أبى إلا أن يحيل شهده إلى صاب وعلقم لقد كان يودّ لو يفتدي ذريته بكل ثمين وغال ولكن المنية لا تطيش سهامُها ، وإذا جاءت لا تُردّ ولا تدفع .

وبعد هذا العرض الذي دعانا إليه حديث الإمام عبد القاهر عن الفصاحة وأنها والبلاغة والبيان والبراعة بمعنى واحد « وأنه لا معنى لهذه الكلمات ... سوى وصف الكلام بحسْن الدلالة وتمامها فيما كانت له دلالة ، ثم تبرُّجُها في صورة هي أبهى وأزين وآنق ، وأعجب وأحق بأن تستولي على هوى النفس وتنال الحظ الأوفر من قبل القلوب ... ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن يؤتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ، ويختار له اللفظ الذي هو أخصٌ به ، وأكشف عنه ، وأتم له ، وأحرى بأن يكسبه نُبلا ، ويُظهر فيه مزية »(1)

ودع هذا وانظر إلى الأبيات التالية من شعر البحتري في وصف الربيع ولا أظن من يطالعها إلا وتتفتح لسحرها منافذه الوجدانية ، وتتسرب أصداؤها إلى المكان العميق من قرارة نفسه ، ومسارب روحه فإذا بكُلّ ما هو ساكن يتحرك ، وإذا بكل ما هو ثابت يتغير ويتحول ، وإذا بالحياة نفسها تُبْعث وتدب ، وإذا بالحركة البطيئة الوهْنَى تقوى وتنشط وتشتد ، وإذا بكل شيء يهتز وينتشي ويطرب ، لقد تيقظت الطبيعة من رقادها الطويل فتيقظ معها كل من في الوجود ، ولقد أخذت تغْسل جفنها الوسْنان بأنداء الربيع ، وأنفاس الزهر ، فإذا بالأحياء ينفضون عن جفونهم رقدة الشتاء الممتد ، وهم يحسُّون نشوة في

(1) دلائل الإعجاز صـ ٣٠ ، ٣١ طبعة المنار .

الروح ، وفتُوة في الجسم ، وجمالا في الكون ، وتبرّجا في الطبيعة ، وأرَجًا في النسيم إنك تقرؤها فتشعر أن الربيع قد فجر في الأرض طاقتها ، وبعث فيها حياتها ، وأنها أخذت تزدان بحللها وحلاها حيث صارت الحياة الهامدة تنتعش في الأغصان الذابلة ، وأفوافُ الوشْي وأكمامُ الزهر يعيدان للطبيعة جمالها الذاوي وشبابها المفقود .

انظر إلى الأبيات وإلى حديث الروض ، ونمنمة الزهر ، وإلى لسان الطبيعة ، واختيال الربيع ، وهمس الكون ، وأغاريد الحياة يقول البحتري :

أتاك الرّبيعُ الطّلقُ يختالُ ضاحكًا ... من الحُسن حتى كاد أن يَتَكلّما
وقد نبّه النيروزُ في غلس الدُّجَى ... أوائِل وَرْدٍ كُنَّ بالأمس نوّما
يُفَتّقُهَا بَرْدُ النّدَى فكأنّهُ ... يَبثُّ حديثا كان قبلُ مُكتّما
ومن شجَرٍ رَدّ الربيعُ لِبَاسَهُ ... عَلَيْه كما نَشّرتَ وشْيًا مُنَمْنَمًا
أحَلَّ فأبْدَى للعُيون بَشَاشَةً ... وَكَان قَذًى للعين إذ كان مُحرْما
وَرَقّ نسيمُ الرّيحِ حتّى حَسِبْتَهُ ... يجيُء بأنفاس الأحِبّة نُعّما
فما يَحْبِسُ الرّاحَ التي أنتَ خِلُّهَا ... وَمَا يمنعُ الأوتَارَ أن تتكلّما

والآن بعد أن انسابت أصوات الشعر إلى مسامعك في هدوء ، وبعد أن انسكبت في داخلها نقية كأصوات الفضة ، طاهرة كأنها تسبيحة الملائكة ، عذبة كأنها هديل الحمائم هل ترى في أي لفظ من ألفاظها ثقلا أو صعوبة؟ وهل تلمس فيها بعدًا أو غرابة ؟ وهل تحسُّ فيها مخالفة لقياس أو ورودا على خلاف ما طبعت عليه ألسنتهم ونطق به صبيانهم قبل كهولهم ؟ وهل بعدما أطل عليك من ثناياها من فصاحة فصاحة ؟وما رأيت فيها من بلاغة بلاغة؟

هل أعيد عليك شيئا من فتنه هذا الجمال ، ومن جاذبية هذا السحر وقد انبثّا من خلال الكلمات ، وتناثرا بين الأبيات ، فأشاعا رضى العاطفة ، وراحة القلب ، وشدو البلابل والطيور ؟

أرأيت صورة الربيع وهو يجتذب خيال البحتري إلى تفتّح الورد ، وإلى أرج النسيم ، وإلى زينة الروض ، وإلى طلاقة تغْمر ما حولها بالبشر والبهجة؟ أرأيت مظاهره من عبير الرياض ، وألوان الخمائل ، وسحر العيون ، وفتنة القلوب ؟ أرأيت إليه وهو يأتي في صوره الزاهية ، وفي أكمامه المتفتحة ، وفي رياضه المخضرة المونقة حتى ليكاد من حسن يناعته أن ينطق وأن يتكلم ؟

إن إقدام الربيع لم يكن إقدامًا عاديًا حتى لا يُلْفِتَ إليه أحدا ، وإنما هو إقدام في طلاقة وجه ، ووضاءة حسن ، وإشراقة جمال ، مما أشاع دواعي السرور وبعث عوامل الخفة والمرح ، فهل يمكن ـ والحال على ما رأيت ـ أن يقابل هذا السحر بالصمت والسكوت[1] .

أرأيت إلى الربيع كيف هز كل شيء في الوجود فغيّره وانتقل به من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين وهكذا حوله من النقيض إلى النقيض ؟

وَقَد نَبَّه النيروزُ في غلس الدُّجَى ... أوَائِلَ وَرْدٍ كُنَّ بالأمْسِ نُوَّمَا

يُفَتِّقُهَا بَرْدُ النَّدَى فَكأنَّهُ ... يَبثُّ حديثًا كان قبلُ مُكتَمَا

وَمِنْ شَجَرٍ رَدَّ الرَّبيعُ لِبَاسَهُ ... عَليه كَمَا نَشَّرتْ وشْيًا مُنَمْنَمَا

أَحَلَّ فأبْدَى لِلْعُيون بَشَاشَةً ... وَكَانَ قَذًى لَلْعَيْن إذ كَان مُحرْمَا

فهو حين قَدِمَ قدِم ومعه الشباب العائد ، والجمال الفاتن ، وحرك كل شيء بعد أن هزه بعنف ، فردّ ما فُقِدَ منه ، وأعاد ما غاب ، وهكذا تسيل الكلمات عذوبة ، وتتدفق سهولة ، وتمضي لا غربة فيها ، ولا لحن ولا نشاز .

كرِّر الرؤية إلى الأبيات وانظر إلى الوَرْد المتثائب في كسل كيف يعود له نشاطه بعد فتور وخمود فيتنبه في ظلمة الليل الحالكة بعد أن كان يغط في نوم عميق ، وانظر إلى الشاعر وهو ينقل إليك حديث النّدى الذي يبثُه إلى الورْد في حنان ومودادعة بلا جَلبة ولا صياح ولا ضجيج ، وتأمل الورد في ألوانه المتنوعة

(١) ديوان البحتري ٤/٢٠٩٠ ، ٢٠٩١ ، دار المعارف .

الزاهية ، وهو يذيع أسرار الجمال ، ويتغنى بها مع أنه كان حديثا من قبل مكتّما ، وانظر إلى أكمامه وهي تتفتح وإلى عبيره وهو يفوح وينفث وإلى شذو زهوره ورياضه وهي تثمل وتسكر ، وبمثل هذا أراك الشاعر المبدع الفنان ما يعتلج في صدره ، وما يتردد في نفسه من خلال رؤيته الشعرية الملهمة في جوٍ متناغم حالم يصور فيه أجواءه النفسية ، وأحاسيسه الداخلية ، في إيقاع رخي ، وتنغيم رضيٍ ، وحسْنٍ ، وفتنة ، وجمال .

إن الأشجار العارية ، والأغصان الجافة الذابلة ، والأرض الميتة القاحلة الهامدة ، قد أعاد الربيع إليها حُلَلَها وحلاها ، ورد إليها لباسها وكِسَاءَهَا ففرعت فروعها ، وأينعت ثمارها ، واخضرت أوراقها . فإذا بها زاهية الألوان ، متنوعة الأشكال ، متشابكة الفروع والأغصان ، متفتحة الأزهار ندية النسيم ، فواحة العبير . خضرة المروج .

وَمِنْ شجرٍ رَدّ الرَّبِيعُ لِبَاسَهُ عَلَيْه كما نشَّرتَ وشْيًا مُنَمْنَمًا
أحَلّ فأبْدَى لِلْعُيون بَشَاشَةً وكان قذًى للعين إذ كان مُحرِمًا

انظر كيف نَظَّر الشاعرُ بين إيراق الشجر ودبيب الحياة في الأغصان وبين أفواف الوشى المتنوع في تعدد الألوان وجمالها ثم انظر إلى مشاعره وهي تتصعّد حين يستشعر رقة النسيم فيرى في هَفهفته وطلاقته وسحره ما يراه في أنفاس الأحبة فيحسب أنها جاءت إليه من خلال مجيئه .

إن الحاضر يستدعي الغائب ، وإن الأشواق لتتنادى ويدعو بعضها بعضًا وهكذا أثارت رقة النسيم أشواق الشاعر الفنان إلى رقة أنفاس الأحبة فجعل الرقة الأولى تجتذب الثانية ، وتشدُّها إليها ، وهكذا صور الخيال الموقف على حسب رؤيته النافذة التي تجعل من لا يرى مرئيا ، وما لا يتلون متلونا ، وما لا يشاهد مشاهدا حاضرا .

وَرَقّ نسيمُ الرِّيح حتَّى حَسِبْتُه يجيءُ بِأنْفاسِ الأحِبّة نُعَّمَا

ثم إذا كان هذا هو الربيع يبعث الحياة من جديد ، ويلوّن الطبيعة بما يجعلها مثار فتنة ودهشه ، يعيد الحياة المفقودة للحياة ، والجمال الغائب للجمال فيه تتلاقى أغاني القيان مع أغاريد البلابل ، وفيه تختلط شقشقة العصافير بهديل الحمائم ، وفيه تحتشد الأرض لتحتفل بشبابها النضير وفتوتها المتفجرة .

أقول : إذا كان الربيع قد ازدان بهذا كله ، وغنّى بهذا كله ، وفاض بهذا كله فهل يقبل عقلا ومنطقًا وإحساسا وشعورا ألا يتجاوب أحد مع هذا السحر وفي هذا كله ما يدعو إلى الغبطة ، وما يحرك كوامن النشوة ، وما يهتف بالرغبة في التطريب والتنغيم واللذة والسرور .

أظن أنه ليس من حق أحد أن يرفض المتعة ما دامت في نطاق المباح الحلال .

فما يَحْبِسُ الرَّاحَ الـتي أنـت خِلُّهَـا ... وَمَـا يَمْنَـعُ الأَوْتَـارَ أنْ تَتَرَنَّـما

فلتطرب النفوس ، ولتهنأ الأرواح ، ولتترنم الحياة .

والآن نؤكد ما سبق أن قلناه في فصاحة الكلمة التي تدور حول خفتها ورشاقتها ويسرها على اللسان ، وعدم صعوبتها ، وقربها ، وإلفها وعدم حوشيتها إذا دارت على الأفواه ، ودوّت بها أسواق الشعر والأدب ، وعدم مخالفتها لما ورد في كلامهم وجرى في استعمالهم .

ودع ذا وخذ هذه الأبيات من قصيدة شوقي (كبار الحوادث في وادي النيل)[1] :

مَن كَعَمرو البِلادِ والضَّادُ مِمَّا ... شَادَ فيها والمِلَّةُ الغَرَّاءُ ؟

جَادَ لِلْمُسلمين بالنيلِ والنيـ ... ـلُ لمن يقتنيه أفريقاءُ

(١) الشوقيات ١/١٦ .

فهي تعلـو شـأنا إذا حـرر النيــــل وفي رِقّــة لــــها إزراءُ

في قصيدة طويلة النفس تحت عنوان : « كبار الحوادث في وادي النيل» عاد فيها شوقي إلى نفسه ، وتيقّظتْ فيه حكمة الزعيم المصلح فحلق بخياله في كل جو ، وسطع بعمله في كل أفق ، وشدا بالأنبياء وبعيسى ومحمد عليهم السلام ، إنه يتناول الفكرة ثم ينميها في دخيلة نفسه حتى تتلون وتتشعب ومن ثَمَّ رأيناه يستدعي التاريخ فيتحدث عن عمرو بن العاص ﵁ ثم يغني لمصر والمصريين والنيل غناء ردده كل لسان ، واهتز له كل قلب ، وهو في الغالب تتمثل له الأفكار ، فيصورها على الوجه الأنسب للتصوير ، والوضع الأجمل في النظم في فصاحة لن تجد لها مثيلا ولن يخطئك ما ترى في بيانه من غزارة الفيض ، وحرارة العاطفة ، حتى لو كان يقص ويسرد ويحكي ولذا تراه يحشد كثيرا من الشخصيات الدينية والعربية وغير العربية مِنْ أجل الوصول بالمعنى الذي يتغيّاه إلى أبعد غاياته وحين ننظر في البيت الأول :

مَنْ كَعَمـرِو الـبِلادِ والضّـادُ ممـا شــاد فيهــا والمِلــةُ الغـرّاءُ ؟

ترى أول ما يطالعك فيه هذا الاستفهام الإنكاري الذي يتشبّع بمعنى النفي أي ليس هنا من هو كعمرو والذي ينبني عليه تشبيه بالسلب يجمع بين سمو الفكرة ، وقوة الأسلوب في صورة تغمر الشعور بالجمال الخالد ، والمثل الأعلى ، والحماسة التي تملأ الصدور بمجد الآباء والأجداد ، وكأنه يعرض بالقيادة الرخوة التي أصابها الوَنى والخُمُود ؛ إذ كانت مصر تعاني مرارة الاحتلال ، ويهيب بها أن تتقدم ولا تتقهقر يدفعها ماض مجيد ، وتاريخ يسجل من كعمرو ؟ إنها الشخصية القائدة التي تغلب والتي ليس كمثلها من يقود ﵁ وكأنما اختاره الفاروق ﵁ لفتح مصر فزوّده بالقول الثابت والرأي الناصح ، والتوفيق الملهم .

ويلاحظ أن «عمرو» أضيف إلى «البلاد» وكل منهما معرفة ولا يصح إضافة المعرفة إلى المعرفة ، ولذا يقدر محذوف تصح على أساسه الإضافة

وتسلم ويكون الكلام بعد تقدير المحذوف (من كعمرو فاتح البلاد) وتكون القيمة البلاغية للإضافة هي تشريف المضاف إليه وحسْبُ البلاد شرفا أن يكون فتحها على يد عمرو بن العاص على أن البلاد كناية عن مصر .

فإذا تركت هذا وأدرت نظرا فاحصا في قوله : «والضادُ مما شاد فيها» فإن أبين ما يظهر كيف يقيم للغة بناء عالي الأركان فسيح الجنبات تتزاحم فيه العواطف ، وتتكاثر فيه الصور ، وتتسع الخواطر بالذهن النيِّر الذي يحييها ، ويغرِّز من خُصُوبتها ورحابتها ، وقدرتها على أن تعبّر عن العلاقات الجديدة للحياة ، في قدرة ، وقوة ، وإفاضة (فالضاد) المراد بها اللغة العربية إن هذه اللغة تتحول في خيال الشاعر إلى شيء آخر .

اللغة وهي اللغة وهي ألفاظ ، وكلمات ، وجمل تراها وقد صيّرها المنشئ إلى بناء فخم ضخم قام في فنائه دوْح السِّدر ، وبسَقَ سرْح الكافور فسماؤه للشجر ، وشجره للزهر . الشاعر المفتن أجرى بين اللغة وبين هذا البناء تشبيها ثم حذفه ورمز إليه بما هو من لوازمه «شاد» وإسناد هذا اللازم استعارة تخييلية قامت على إثر المكنية ، ثم أفسح مجالا أرحب وأوسع للخيال حين جعل الجار والمجرور «فيها» ، وهو ما لا يمكن أن يستوعب ما بداخله متعلقا بالفعل «شاد» وعائدا على اللغة ، وهكذا كلما أدمت النظر طالعتك فنون ورؤى وخواطر ، على أن (الضاد) مبتدأ و(ممّا) جار ومجرور خبر وجملة «شاد فيه» صلة الموصول «ما» وهكذا يتماسك البناء ويتداخل .

وفي قوله : «والملة الغراء» ترى الخيال يتصعّد ، والتصوير يتكثّف ، حين تبصر وترى الملة وهي الدين والشريعة تلبس حُلَلاً وتتزين وهكذا تتغير صور الأشياء في خيال الشاعر فيجعل ما ليس بمتلون متلونا وبمثل هذه القدرة على التحويل والتصيير يوهم المتلقي أن الملة تتلألأ وتضيء وتشرق ، وأنه يرى فيها هذا كما يراه في الشمس تمامًا بتمام وهذه قدرة على المخادعة ، وكما أراك شوقي أن عمرا أقام للضّادِ صرحا أراك أنه أقام للإسلام دولة تجمع إلى

سعادة الدنيا سعادة الآخرة ، وتعالج الفساد الذي استشرى في العالم ، والداء الذي استفحل في الناس ، وتقيم ميزان العدل في المجتمع ، وتحارب الأطماع التي تتصارع ، والأهواء التي تتطاحن ، والأثرة التي تُسِف ، والخصومة التي تكيد ، وبمثل هذا يحقق للإنسان مهما كانت عقيدته أخوة في الإنسانية يقوم عليها العدل ، ومساواة يعم بها النعيم . ودع ذا وعد إلى شوقي

جاد للمسلمين بالنيل والنيـ ـلُ لمن يقتنيه أفريقاءُ

(جاد للمسلمين بالنيل) جملةٌ خبرية فيها قصٌ وحكى ، وسرد ، وهي طريق من طرق الدلالة على المعاني فيها بساطة وفيها تلقائية لكن فيها غزارة وعمق إذ تطوي وراءها قصة رحلة طويلة بدأها جنود الإسلام بقيادة عمرو بما حملت من آلام العبقرية ، ومحن البطولة ، حين تدرَّعت باسم الله حتى أقرت الحق ورفعت راية الإسلام في مصر وهذه الجملة (جاد للمسلمين بالنيل) إنما أسند الفعل فيها «لعمرو» على أساس أنه القائد الملهم الذي لا يرتقي إليه صَخَبٌ ولا يعلق به قتم ، ولا يمكن محوه من عين الوجود ، ولا طيه من سمع الزمان وأنى هذا وهو فاتح مصر ، ومسجده الكبير في القلب منها أنشودة الدهر ، وطيب الحياة ؟

وفي قوله : «جاد للمسلمين بالنيل» كناية عن فتح مصر واختياره لكلمة «النيل» لأنه الدم المتدفق في كل عرق ، والنبض الجياش في كل قلب فهو للمصريين بمنزلة النور من العين ، والروح من الجسد ، ثم تأمل هذا التعبير المصور «والنيل لمن يقتنيه أفريقاء» .

وقف أمام كلمة «يقتنيه» تلك وهي كلمة واصفة بدلالَتها وإيحائها لتبصر في ضوئها وترى إلى أي مدى تفسح مجالا يسبح فيه الخيال ، ويسرح في أعماقه الخاطر ؟ ومن ذا الذي يديرها في فيه دون أن يتمثل اقتناء الضياع والعمائر ، واللآلئ والجواهر وكل ما يبقى ويحفظ ويدخر ؟

ومن ذا الذي يذكر النيل مقترنا بها ولا يرى أنه قد اجتمع لمصر ما لم يجتمع لغيرها من أسباب الطموح ، ووسائل الصعود ما يجعلها تتقدم ولا تتأخر؟ فتهتز الأرض وتتجدد الحياة ، ويمرع الوادي الجديب ، ويورق الشجر ، ويخصب الوجود ويتنافس الجميع في بناء مصر والارتقاء بشأنها .

وعُدْ عن ذا ، وَجُلْ بذهنك في تلك الومضة التي أَشْعَهَا التخييل والتي التمعت التماعًا في قوله : «والنيل لمن يقتنيه أفريقاء» وكيف أراك الشاعر النيل الذي هو مياه تتلاطم ، وتتماوج ، وتتدفق بين شاطئين وتعرفه أنت على هذه الصورة ، أراك إياه في حركة تخييلية لؤلؤة اللآلئ ، وجوهرة الجواهر وكنز الكنوز مما يبقى ويُدَّخَر ، ثم أخفى هذا من المشهد وأبقى على ما هو من لوازمه «يقتنيه» ، وفي إضافة هذا اللازم إلى النيل استعارة تخييلية ثم إن هذا النيل ليس لمصر وحدها إنه نبع الحياة لمصر ولفرقاء آخرين «أفريقاء» جمع أفْرقة وأفرقة جمع فرقاء فتكون أفريقاء جمع الجمع أو تكون جمع أفراق ومفردها فِرْق بمعنى قسم ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي فانفلق البحر فصار كالجبال الشواهق «أفريقية» اسم بلاد وقد جمعها الأحوص على «أفاريق»[1].

وفي قول شوقي :

فهي تعلو شأنا إذا حرر النيـ ـل وفي رقة لها إزراء

(الفاء) في قوله (فهي) فاء الفصيحة أو التقريعية أي إذا كان الأمر على هذا الشأن فإن «أفريقياء» فالضمير في «فهي» عائد عليها ، لكن المراد مصر إذ إن سياق الأبيات يجعلنا نفهم هذا الفهم .

(١) لسان العرب ٥/٣٤٠٢ .

إنه يتحدث عنها ويتغنّى بها حين تكون فتية محررة إن شأنها يعلو ويرتفع فهي تسير مع الزمن إلى الأمام ، وتتوثب مع الحق على العدو ، ويفسح لها التاريخ بين أيامه طريقا لتتقدم وتسود ، وينبسط في أرجائها السلام ، ويطّرد في مياهها النعيم ، لا ينجم فيها ناجم من الشر ، ولا تنكفئ إلى الخلف ، ولا تستطيع قوة أن تثير في وجهها الرعب ، وتمسك رايتها بيمينها وتبقى مرفوعة خفاقة لا تسقط فهي قوة لنفسها ولمن حولها ، تُسمِع الأصم ، وتُنطق الأبكم والتاريخ شاهد عدل على ذلك لكن إذا وهن عظمها ، ونحل جسدها ، وَرَقّ حالها ، وثقل سيرها ، واضطرب نظامها ، وتولى أمورها شرارها ، وأقيمت الحواجز والسدود بين الحرية والعدالة وفقدت الزعامة الملهمة وتجاوزها الوراء والأمام فمصر حينئذ أمام إزراء من الشر المحض ، والعذاب الخالص ، والأحلام الضائعة ، والأماني المقبورة والعزائم الوهنَى وأعد قراءة البيت مرة أخرى لتتأكد من صدق ما أقول .

فهي تعلو شأنا إذا حرّر النيـ ـلُ وفي رقه لها إزراء

النيل هنا المراد منه مصر وسميت به لفضْله وشرفه وفيه تخييل مثير جرى مضاهاته بالأسير المقيد ، ثم زحزح من المشهد وأخفى وبقي ما يدل عليه وهو « حُرِّر» والتعبير بـ « إذا» للقطع بأن هذه البلاد يعلو شأنها إذا حرر النيل وأن هذا شيء محقق لا أخذ فيه ولا رد وأن هذا الوهن إزراء لمكانتها ، وعيب عليها ، وتنقّصٌ من قدْرِها وتلك قيمة بلاغية أوضح من أن يشار إليها للتعبير بأداة الشرط « إذا» وقوله (رقة لها) قد يكون كناية عن الوهن والضعف أو أن يفهم من رقة أنها بمعنى استرقاق واستعباد وفي ذلك مقابلة معنوية بين حُرِّر ورقة .

والآن مرة أخرى نؤكد ما سبق أن قلناه في فصاحة الكلمة ، وأنها تدور حول سهولتها ويسرها ، وجريانها على اللسان ، وعدم تعثره عند النطق بها ، مع عدم صعوبة فهمها ، وعدم حوشيتها وبعدها ، وإغرابها ومخالفتها لكلام

العرب وما جرى في استعمالهم خذ هذه المقاييس وطبقها على كلمة قرأتها ومرت بك مما سبق أن تعرضنا له من نموذج قرآني ونماذجَ شعرية في عصور مختلفة خرجنا فيها على المألوف ، وتوسعنا في دراستها ، وحاول أن تطبق مقياس الفصاحة الذي ذكرناه على كل كلمة ؛ إذ ما من كلمة من الكلمات التي دار بها لسانك في هذه النماذج كلها ، وجرت على فمك إلا وقد تحقق لها من أسباب الفصاحة ما يجعلها منها في القلب والصميم .

فالسهولة باديةٌ وواضحة ، وآية ذلك انطلاق اللسان بها ، وجريانها عليه من غير كد ، ولا إرهاق ، ولا صعوبة مع ارتياح الأذن لسماعها وجريانها على القياس اللغوي وعدم مخالفتها لاستعمالهم .

ودع هذا واستمع إلى أبي تمام وهو يقول :

قد قُلْتُ لَمَا اطْلَخَمَّ الأمرُ وانْبَعَثَتْ ... عَشْوَاءُ تاليةً غُبْسًا دهاريسَا

واطْلَخَمَّ الأمرُ : بمعنى : اشتد ، وهو لفظ فيه من الصعوبة عند النطق به ومن نبوّ السمع عنه ما يذهب به بعيدا عن الفصاحة فيما أرى مهما يقال : إن اختلاط الأمر يحتاج في الإفصاح عنه لما يمثله من اختلاط في الحروف ، وصعوبة عند النطق بها وغبسا : جمع غبساء الشديدة الظلمة والدهاريس : جمع دهرس وهو الداهية .

حاول أن تقرأ هذا البيت مرة وتأمل وأنت تنطق به كيف تكون حال كلماته على لسانك ؟ هل ينطق بها في يسر وسهولة أم يحس بالإرهاق والثقل والمشقة ؟ هل ينطلق بها ويتدفق أو يتوقف بها ويتعثر ؟ هل يواتيك المعنى في يسر وسهولة أم أنه يشق عليك ويغمض ؟

ثم وازن في الأداء الصوتي وسفارة المعنى بينه وبين ما سبق تجد التباين الشديد بينهما وترى أنهما من وادِيين مختلفين ومتباعدين وأن المسافة الفاصلة بينهما هي المسافة بين الضد وضده بين الحسن الفصيح وبين السّمج الثقيل ، ثم دع ذا وانظر إلى الثقل الأشد عند النطق بالكلمة مما يخرج بها بعيدا عن مجال

السهولة ويقذف بها مع المتنافر الصعب الثقيل الذي لا ترى بينه وبين الفصاحة وشيجة من الوشائج ، أو صلة من نسب أو قربى وذلك في لفظ « الهُعْخُع » بمعنى النبات حين سئل أعرابي عن ناقته فقال : « تركتها ترعى الهعخع » ولو حاولت أن تنطق بهذه الكلمة لتقيس ما بها من ثقل وصعوبة على اللسان لوجدتها تبلغ حدًّا كبيرا ؛ إذ إن كثرة حروف الحَلق فيها كثرة مرهقة من الهاء ، والعين ، والخاء ، والغين ، قد أعان على هذه الصعوبة وحققها وجعلها تأخذ منها بأوفر حظ ، وأكبر نصيب ولذا قالوا عن التنافر في مثل هذه الكلمة إنه تنافر شديد .

على أن هذه الصعوبة قد توجد على نحو أقل مما هو موجود في مثل قول أبي تمام السابق والبلاغيون يطلقون عليه « التنافر الخفيف » ككلمة « مستشزرات » في قول امرئ القيس :

وفرعٍ يزينُ المتنَ أسودَ فاحمٍ ... أثيثٍ كقِنْو النَّخْلَة المتَعَثْكِل

غَدائِرُه مُستَشْزِراتٍ إلى العُلا ... تَضِلُّ العِقاصُ في مُثَنًّى ومُرْسَل

فهم يلحظون في كلمة « مُستَشْزِرات » ثقلا ينأى بها عن السهل الخفيف ويقارب بينها وبين الثقيل البغيض .

والفرع : الشعر الطويل ، والفاحم : الشديد السواد والأثيث : نعت لفرع والكاف في موضع خفض على النعت لأثيث والتقدير أثيث مثل قنو النخل والمتعثكل : المتداخل لكثرته .

وهناك من الباحثين من يبرّئ ساحة الكلمة التي نطق بها امرؤ القيس من الثقل ؛ إذ إنه لا يفصل بينها وبين السياق التي وردت فيه ، والتي جاءت قارّة في مكانها منه ومعبّرة عن المعنى بما لا يمكن أن يساويها في التعبير عنه غيرها ، وحتى لا يقضي في الكلمة بعيدا عن النص الذي وردت فيه من معلقة امرئ القيس،فإنا نذكرها من خلال السياق الذي يتحدث فيه الشاعر عن فتاته فيقول:

تصُدّ وتُبدي عن أسِيل وتتّقي ... بناظِرَة من وحش وَجرَةَ مُطْفِلِ
وَجيدٍ كجيد الرِّئم ليسَ بفاحش ... إذا هي نَصّتهُ ولا بمُعَطّلِ
وَفرْعٍ يزينُ المتْن أسْوَدَ فاحم ... أثيثٍ كقِنْوِ النّخْلَةِ المتَعَثْكِلِ
غَدائرُه مُسْتَشْزِرَاتٌ إلى العُلا ... تَضِلُّ العُقاصُ في مثنّى ومُرْسَلِ

فهو يتحدث عن جمال في حسنائه غير معهود من خلال خدها الأسيل الناعم ، وعينيها النجلاوين الساحرتين ، اللتين تشبهان في سعتهما وجمال منظرهما عيني هذه البقرة الناظرة إلى طفلها في حنان ، وإشفاق ، وعطف وموادعة ويصف جيدها بأنه في حسنه وجماله فيجعل منه نظير الجيد الرئم غير أنه لا فحْشَ فيه إذ هي نصّته أو مدّته ، كما أنه ليس عاطلا من الحسن والزينة ، ثم تحدث عن الشعر وطوله ، وغزارته ، وكثافته ، وكيف جمعته على رأسها في صورة غديرة مرتفعة ولكن الريح ضربته فتفرق ، على غير ترتيب وعلى غير نظام ، منه المثنى الملفوف ، ومنه الملوي المعقوص ، ومنه المرسل المطلق ، فإذا ما حاولت تصفيفه وترتيبه فإن المشط يتعذر عليه ويمتنع نظرا لكثافته وتنوعه واختلافه .

إن الحركة المضطربه في الشّعر التي فرقته ، وشوشته ، وأفقدته ترتيبه ونظامه لا يماثلها سوى الحركة المضطربة في اللسان وهو ينطق بكلمة «مستشزرات» إن نظم الحروف في الكلمة على هذا النحو أدّى إلى وخامتها وسماجتها ، وثقلها ، ويلاحظ أن السماجة آتية إليها من حيث رفض السمع لها ، ونبوّه عنها ، وكراهيته لها ، مع اضطراب حروفها هذا الاضطراب الذي جعل اللسان عند النطق بها أشبه ما يكون بالمقيّد الذي تتقاصر خطواته ، وتضيق ولا تتسع وتطول لقرب مخارج حروفها ذلك أن اجتماع الحروف فيها على هذا النحو قد أشاع الاضطراب في حركة اللسان ، وقلّل من انطلاقته ، وحدّ من سيولته وسرعته مما يسبب له عند النطق بها العنتَ ، والإرهاق ، والمشقة وهذا

ما يمثل حالة هذا الشعر الذي ماجت به الريح ففرقته على غير نظام ، وأحدثت فيه تشويشًا وخلَلاً واضطرابًا فإذا ما حاولت تصفيفه وتسويته فإن المشط لا يتحرك فيه بحرية وانطلاق وإنما تكون حركة قصيرة سريعة إذْ ما تكاد تنتهي حتى تبدأ من جديد والمسافة بين البدء والنهاية مسافة ضيقة وقصيرة فكأن حركة اللسان المضطربة هي أدل على حركة المشط في مثل هذا الشعر من آية كلمة أخرى وعليه فلا ثقل ولا صعوبة ومن ثَمَّ لا تنافر .

ولكن مهما يقال عن نجاح الشاعر في حكاية المعنى الذي أراد أن يحكيه بهذا اللفظ الذي أتى به حين اختار لاضطراب الشعر اضطراب الحروف في نظم الكلمة ؛ إذ إن الذوق لا يقبل ذلك ولا يستسيغه ، وكان من الأليق أن يختار الشاعر للمعنى الذي يريد أن يحكيَهُ اللفظ الأمثل الذي يصوره في خفة ، وسيولة ، وانسياب ، وتدفق فضلا عن أن هذه الكلمة «مستشزرات» ثقيلة على السمع إذ فقدت زنينها الحلو ، وإيقاعها المتناسق ، وانسيابها الهادئ ، مما جعل الأذن والكلمة تنسكب في داخلها لا تطرب لتجاور حروفها ، ولا تنتشي لاصطفافها فيها .

وعذوبة الكلمة ، وحلاوة مقاطعها ، واهتزاز السمع عند سماعها مطلب لفصاحة الكلمة كما سبق أن رأينا ذلك عند ابن سنان .

إن الثقل المطلوب في الكلمة هو الذي يكون مطلبا من مطالب فصاحتها والذي يصعد بها في آفاق من الارتقاء والحسن بحيث لا يساويه شيء غيره ، ولا يحاكيه سواه ، وعندئذ لا نقول إنه ثِقَلٌ أخلّ بفصاحة الكلمة ، وأذهب بخفتها وسهولتها ، ولكن نقول إن ما تحقق لها من فصاحة إنما كان عن طريقه وبسببه ؛ إذ إنه نوع من التناسق الفني في الأداء التصويري كما ذهب إلى ذلك الإمام الشهيد ـ بإذن الله ـ سيد قطب ـ رحمه الله ـ فعن طريق لفظة واحدة يظن أن بها ثقلا تنهض في تصوير موقف ، وحكاية مشهد ، ورسم صورة ، والآن إلى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ

ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (التوبة:٣٨) .

وقف أمام لفظ «اثاقلتم» وأعد قراءته وقد ترى أن حرف «الثاء» هنا المشدّد مع التحامه ببقية النظم في الكلمة قد أوجد نوعا من الثقل والصعوبة عند النطق بها ، ولكن النظرة المتملية الفاحصة ترى أن الثقل هنا هو الثقل المطلوب لبلوغ الكلمة أعلى قدر من الفصاحة ؛ إذ إنه يصور الموقف تمام التصوير حين يحكي قصة هؤلاء الذين يلجئون إلى الدَّعَة والراحة ، ويتقاعسون ، ويتباطئون عن واجب الجهاد والكفاح ويرون فيهما من المشقة والصعوبة ما يجعلهم يخلدون إلى الأرض ويلتصقون بها ، فلا يحاولون النهوض بما تفرض عليهم تبعات هذا الدين من جهاد مضنٍ ، وكفاح شاق . وكد وكدح في مواجهة الأعداء .

إن كلمة «اثاقلتم» هنا ترسم وحدها صورة هذا الجسد المشدود إلى الأرض اللاصق بها ، الخالد إليها ، الشاعر بمشقّةِ الجهاد وكأنه من شدة ركونه إليها ثقيل ... ثقيل يستعصي في رفعه ، والنهوض به على مجموعة من الأشداء ذوي القوة إذا ما حاولت ذلك .

إن اللفظ على هذه الصورة هو اللفظ الفصيح الذي لا يساويه في فصاحته لفظ آخر ، ولو حاولت أن تخفف شيئا من هذا الثقل في اللفظ فأقمت حرفا مكان حرف آخر وجعلت من اثاقلتم «تثاقلتم» لرأيت هذه الخفة تذهب بفصاحة الكلمة وتباعد بينها وبين تصوير الموقف وحكاية الصورة ورأيت أن الفصاحة كل الفصاحة في «اثاقلتم» لا في غيرها .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ (النساء:٧٢) وحاول أن تخفف شيئا من الثقل الموجود في كلمة «ليبطئن» بأن تجعل منها في غير النسق القرآني «يبطئ» مثلا فيكون الأداء : «وإن منكم لمن يبطئ» ووازن بين صورة الكلمتين «ليبطئن» و«يبطئ» واطرح على نفسك سؤالا في أي الكلمتين ترتسم في نفسك صورة التبطئة أكثر ؟

ثم وسع دائرة الموازنة لتجعلها في العبارة القرآنية كلها : ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ وبين قولك في غير النسق القرآني : « وإن منكم لمن يبطئ » واطرح على نفسك السؤال نفسه في أي العبارتين ترتسم صورة التبطئة أكثر؟ لاشك أن الإجابة تنادي عليك في وضوح ، وكشف ، وجلاء ، إذ تجدها في النسق القرآني الذي يجلّي ويرسم صورة التبطئة لهؤلاء المتخاذلين المتقاعسين الذين إذا طلب منهم أن ينفروا في سبيل الله كان منهم التباطؤ الشديد على النحو الذي مثلته الكلمة « يبطّئن » من خلال العبارة القرآنية : ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ والذي جاءت عقب النداء المشفوع بالأمر المتكرر في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ (النساء: ٧١، ٧٢).

واقرأ قول الله تعالى حكاية عن سيدنا هود ـ عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ (هود:٢٨).

إن الكثرة المرهقة من الضمائر في لفظ ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ قد جعلت من النطق بالكلمة أمرًا شاقًا وصعبًا ، ولكنها تمثل جوّ الإكراه والإلزام بما فيهما من عنت ومشقة .

وحول السبب في تنافر حروف الكلمة دار نقاش ، وجرى حوار ، وأخذ وعطاء بين علماء البلاغة عن العلة والسبب فذهب ابن سنان إلى أن مما يدعو إلى التنافر في نظم الكلمة هو قرب مخارج حروفها ؛ ولذا رأى أن الكلمة الفصيحة هي ما تباعدت فيها مخارج الحروف ، وأخذ لما يدرك بالسمع دليلا مما يدرك بالبصر وجعل منه تعليلا لذلك فالحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر . ومما لا يُثار حوله شك أن الألوان كلما اشتد التباين بينها كانت أحسن في العين منظرا ، وأجمل شكلا ومظهرا ولذا

كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة لقرب ما بينه وبين الأصفر وبعد ما بينه وبين الأبيض .

وعليه فقرب مخارج الحروف سبب من أسباب ثقل الكلمة على اللسان ، وعدم انسيابها عليه كما في لفظ «الهُعْخُع» ؛ إذ إن كثرة حروف الحلق على هذا النحو المرهق في الكلمة قد أوجد هذه الصعوبة ، وأنشأ هذا الثقل . وهناك من قاس على قرب المخارج في القبح بعد المخارج على النحو الموجود في كلمة «ملع» بمعنى «جدّ» في السير وأسرع ؛ إذ إن الميم حرف شفوي ، والعين حرف حلقي ، والمسافة بينهما بعيدة بعيدة وبعد هذه المسافة هو الذي أوجد هذا النوع من الثقل والتنافر .

ولكن هناك من العلماء من وهّن من هذا الرأي حين لم يجد هذا الضابط مطردا يصدق على كل الكلمات ؛ إذ إنك تلحظ في بعض الكلمات الخفة ، وعدم الثقل ، مع أن حروفها متقاربة في المخرج أو متباعدة فيه واقرأ إن شئت كلمتي «الجيش والشجي» هل ترى فيهما ثقلا أو تحس عند النطق بهما صعوبة ؟ إنهما ينسابان على اللسان في يسر ، وخفة ، ولين ، مع أن حرفي «الجيم والشين» متقاربان في المخرج وردّد الكلمتين «علم وملح» ولن تلمس عند النطق بهما ثقلا أو مشقة مع تباعد المخرج بين «العين والميم» أو «الميم والحاء» .

على أن هناك شيئا وراء هذا كله يجب ألا يغيب عنا وأن نضعه أمام أعيننا هو ما نتلوه في القرآن الكريم وهو من هو ؟ فصاحة وبلاغة من الكلمات التي قربت فيها مخارج حروفها أو بعدت فما بعدت مخارج حروفه كلمة «علم» إذ ذكرت مادتها في أكثر من موضع مع تباعد العين والميم في المخرج وما قربت مخارج حروفه ما تجده في كلمة «أعهد» في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ (يس:٦٠) .إذ إن الهمزة والعين والهاء كلها متقاربة في المخرج فلو أن الضابط في تنافر الكلمة قرب

مخارج الحروف أو بعدها لأدى ذلك إلى وقوع غير الفصيح في القرآن الكريم والقرآن في أعلى درجات السلم البلاغي ووقوع غير الفصيح فيه أمر قطعي الاستحالة .

ولعل صوتا يرتفع ليقول إن ورود كلمة غير فصيحة وسط هذا الكم الهائل من الفصيح العالي لا يقدح في فصاحة القرآن ولا يباعد بينه وبينها . كما أن ورود كلمة أعجمية لا يخرجه عن عربيته والأمثلة على ورود الأعجمي في القرآن كثيرة ومع ذلك لا يمكن لعاقل أن ينكر ما في القرآن من عربية جاءت على مستوى لا يصل إليها أحد .

وتفنيد هذا الاعتراض لا يحتاج إلى أن نحتشد له فهو أو هي من أن نقدح الذهن لتبديد شبهته ؛ لأنه يتصل بمسألة هي من العقيدة في القلب والصميم ، إذ إن مجرد التسليم بأن كلمة واحدة قد حوَاها القرآن من غير الفصيح يجرّ إلى ما لا يليق بالله سبحانه وما تنزه عنه من نسبة العجز ، وعدم القدرة على إبدال غير الفصيح بالفصيح في كتاب جاء يتحدى ببلاغته الإنس والجن فعجزوا على أن يأتوا بمثله أو بأقصر سورة منه لبلوغه أعلى طبقات البلاغة .

على أن القول بأن اشتمال الكلام الفصيح على كلمة غير فصيحة لا يخرجه عن فصاحته وعليه فإن القرآن لا يخرج عن الفصاحة لوجود كلمة غير فصيحة فيه قول لا يراعى ما اشترطه علماء البلاغة لتحقيق الفصاحة من ضرورة فصاحة كل كلمة من كلمات الكلام الفصيح والقياس في وقوع غير الفصيح من الألفاظ في القرآن على ورود كلمات غير عربية في الكلام العربي ومع ذلك لا يخرج بها عن بلاغته لم يلاحظ فيه أنهم لم يشترطوا في الكلام العربي أن تكون كل كلماته عربية كما اشترطوا ذلك في الكلام الفصيح .

وإذا ثبت هذا بطل عدم قرب مخارج الحروف في الكلمة أو بعد مخارجها كضابط ومقياس لتنافر الحروف في الكلمة ومن ثَمَّ ثقلها على اللسان وصعوبة النطق بها فإن الذي يقضي بهذا ويحكم ، أي بالتنافر هو الذوق السليم فما عده

الذوق صعبا يتعسر النطق به ويتعذر جريانه على اللسان في سهولة ولين فهو متنافر وما ليس كذلك فلا سواء كان متقارب المخارج أو متباعدها .

الغـــرابـــة

على أن مما يذهب بفصاحة الكلمة غرابتها ، وبعدها ، وكونها غير مأنوسة ولا مفهومة لدى المتلقي وعليه فالغرابة : كون الكلمة غريبة المعنى ، وحشية المضمون ، لم تجر كثيرا على ألسنة الأدباء ، ولا على أقلامهم إن معنى وضوح الكلمة أن تظهر دلالتها ظهورا بيِّنًا سافرا وأن يكون الجهد المبذول في سبيل الوصول إلى معناها وتحصيله جهدا لا يحتاج إلى كد ذهن وإجهاد فكر ، ورجوع إلى المعاجم اللغوية لفهم دلالتها .

إن الذوق العربي قد ارتضى أشياء بعينها ، وقد رفض أشياء لذاتها رفض الغريب والتباصر به والتشادق على نحو ما أفاض فيه الجاحظ ؛ ذلك أن الكلمة الغريبة تقف حجر عثرة في طريق توصيل المعنى إلى الذهن إذ إنها تقطع تيار الفكرة المتدفق الذي يشق مجراه الطبيعي داخل العقل ، وبذلك تكون حاجزا يحول دون الفهم ، ويمنعه مما يؤدي إلى تشويش المخاطب ، وإرباكه ، والإساءة إلى معرفته ، ومن ثمّ نفهم لماذا قيل إن الاستعانة بالغريب عجز ؟

خذ قول الأعرابي الذي سقط من فوق ناقته فاجتمع الناس من حوله فقال لمن اجتمعوا : « لماذا تَكَأْكَأْتُمْ عَلَيّ كَتَكَأْكُئِكُمْ على ذي جِنَّةٍ افرَنْقِعُوا »؟ ومعنى هذا الكلام لماذا اجتمعتم عليّ كما تجتمعون على رجل مجنون انصرفوا ؟ وهذا المعنى ليس من السهولة فهمه من العبارة في لين ويسر ولكنك حين تحاول ذلك فلابد أن تعود إلى الكتب التي تشرح معنى المفردات حتى تقف على معناها ، لابد أن ترجع إلى معجمات اللغة ومثل هذا الغريب هو

الذي يحول دون فصاحة الكلمة ، ويمنع إشراقَها ، وظهور دلالتها ، والبلاغيون يذكرون أنّ عدم وضوح الدلالة من اللفظ وعدم ظهوره مما يسمى بعدا وإغرابا يعود ويرجع إلى سببين :

الأول : عدم تداول الكلمة ، وعدم ذيوعها ، وانتشارها ، وجريانها على ألسنة الأدباء والشعراء فيُحتاج في فهمها إلى بحث وتفتيش في معاجم اللغة وكتبها وقد يعثر لها على معنى كما في قول الأعرابي السابق وفي مثل لفظ «رحاح» بمعنى : سَعَة ورغد و«مُسْحَنْفِرة» بمعنى متّسعة وقد لا يعثر لها على معنى : مثل «تَرْتَلِج» ومثل «جَحْلَنْجَعْ» بجيم مفتوحة ، فـ(حاء) ساكنة ، فـ (لام) مفتوحة ، فـ (نون) ساكنة ، فـ (جيم) مفتوحة ، فـ (عين) ساكنة ، ويكاد لساني يكبو ويتعثر وهو ينطق بهاتين الكلمتين مما يجعلني أفهم أن ما فيهما من هذه الصعوبة يُعَدّ تنافرا بين حروفهما ، وعدم مواءمة ومجانسة أيضًا بالإضافة إلى ما فيهما من هذه التعمية التي لا يظهر معها المعنى بسبب الركود ، وعدم التداول ، والتوقف عن عدم الاستعمال مما أصاب الكلمة بخلل في معناها ، وعدم فهم المراد منها .

الثاني : عدم استعمال الكلمة وتداولها على ألسنة الخلص من الأعراب بالمعنى الذي أريد منها فيُحتاج في معرفتها إلى تخريجها على وجه بعيد كلفظ «مُسَرَّجا» في قول رؤبة ابن العجاج :

أيام أبدت واضحًا مُفَلّجا ... أغَرَّ بَرّاقًا وطرفا أدْعَجَا

ومُقْلةً وحاجِبًا مزجّجا ... وفَاحِمًا وَمَرْسِنًا مُسَرّجا

واضحًا : أي بيِّنا يقصد أسنانًا واضحة ، والفلج : التباعد بين الأسنان والأغرّ : الأبيض ، والبرّاق : اللامع ، والأدعج : اتساع العين وحسنها والمزجج : المدقق المقوس والفاحم : الشعر الأسود الذي يشبه الفحْم في سواده ، والمرسن : الأنف .

والشاعر يتحدث عن جمال حبيبته الذي صرعت هواه ، وأججت مشاعره من خلال تلك المحاسن كلها من الأسنان البيضاء المتلألئة ، ومن هذا الفلج الذي باعد بينها فجَمَّلها ، وحَلاَّها إذ لم يظهرها متراكبة متراكمة ومن هذا الثغر الدقيق الأغر ومن هاتين العينين النجلاوتين الواسعتين ، ومن هاتين المقلتين الدقيقتين ، ومن هذين الحاجبين المقوسين المنحنين ومن هذا الشعر الأسود الفاحم الذي وصفه بأنه «مسرج» ونحن نتوقف أمام هذا الوصف لنتساءل ماذا أراد به ؟ هل المقصود تشبيه الأنف بالسيف في الدقة والاستواء ؟ مثل تلك السيوف التي يصنعها «سريج» الحداد فاستعمل لفظ(مُسَرَّج) في هذا المعنى أم أنه يقصد ويريد أن يشبه أنف هذه الفتاة بالسِّراج في الدّقة واللمعان؟ وسواء عليه أأراد هذا أم ذاك فلا يستقيم له ما أراد ؛ لأن صيغة «مُفَعَّل» بالتضعيف في العين إنما تدل في الفصيح العربي على مجرد النسبة أي نسبة شيء إلى آخر ولكنها لا تدل على التشبيه ومن ثَمَّ كانت الكلمة غريبة إذ لم تستعمل عند الأعراب الأقْحَاح بالمعنى الذي أريد منها .

على أن هناك من حاول أن يرد هذا العيب في الكلمة ويدفعه على أساس تصح به وتسلم حين نحى بمسرّج منحى آخر في الأخذ والاشتقاق وبين أنها اسم مفعول مأخوذ «سرّج الله وجهه» أي حسَّنَه وجمَّلَهُ وبهّجه وعليه فإن قول الشاعر «ومرسنا مسرّجا» معناه وأنفا محسَّنا مبهّجا من غير أن تكون هناك ملاحظة نسبة شيء إلى شيء ، أو تشبيه شيء بشيء وبهذا تخرج الكلمة من نطاق البعيد الغريب وتدخل في دائرة الحسن الفصيح .

لكن هذا التخريج ، وإن لم يباعد بين الكلمة «مسرّج»، وبين استعمالها في معناها الذي أريد منها عند العرب الخلّص إلا أنها ما تزال غريبة بالمعنى الأول للغرابة ؛ إذ إنها تحتاج إلى تفتيش ، وبحث ، وتنقيب في معاجم اللغة للكشف عن هذا المعنى .

وإذا كان لا يبعد أن يكون «سرّج» مأخوذا من السراج بمعنى «حسنه وبهّجه» أي أوجده على هذه الصفة ، وبذلك لا يكون على معنى النسبة التشبيهية كما تقدم ، ويكون ذلك من ابتكار المولّدين ، ولكن هذا لا يصح لاصطدامه بأصل مقرر موثق .. وهو امتناع أخذ السابق من اللاحق .

وإذا كانت الغرابة تدور حول وحشية الكلمة ، وإهمال استعمالها ، وعدم دلالتها على معناها ، وعليه فلا يلحق وصف الغرابة للكلمة حين تكون مأنوسة الاستعمال ، كثيرة الجريان على ألسنة ذوي البيان ، وحين تكون غير مغربة في المعنى ، ومفهومة للسامع على حد سواء فكيف نقيس قرب الكلمة ، وأنسها ، ويُسْرها ؟ وكيف نقيس أيضًا مدى غربتها وبعدها وحوشيتها ؟ ومن الذين يطبق عليهم هذا المقياس ؟

هل هم الدهماء الذين لا يميزون بين الأشياء ، ولا يفصلون بين الأبيض والأسود ، والغث والسمين ؟ هل هم الخاصة الذين طالت ممارستهم لاستعمال حُرّ البيان ، ورائع القول ، وصار لهم ذوق خاص من كثرة دُرْبتهم ومرانهم ، ومعاناتهم في قراءة النصوص الجيّدة وفهمها ووزنها وتحليلها ثم ألا نستطيع أن نقول إن الحكم على اللفظ بالغرابة أو عدمها هو أمر نسبيّ يختلف من إنسان لآخر تبعا لميوله ، وقراءاته ، وثقافته ؛ إذ إن ما قد يكون مغربا بعيدا خفي المعنى غير واضح الدلالة عند فرد قد يكون مأنوسا مفهوما ظاهر الدلالة على معناه عند آخر ؟ وذلك شيء طبعي في بيئة تتفاوت فيها العقول ، وتتنوع الثقافات ، ويوجد فيها أنصاف المتعلمين ، والعلماء المتبحرون الذين وقفوا أعمارهم في قراءات متصلة ممتدة ، واستطاعوا من خلال قراءتهم أن يقفوا على دقائق اللغة ، وأسرارها ، وأحوالها ، وهيآتها ، وما يحسن منها ، وما يقبح وما يجوز وما لا يجوز ، وما يكون صوابا وما يكون خطئا .

والحق الذي نقول به ، ولا يعدله شيء غيره في تقديرنا أن الذي تقبل حكومته في هذا ، ولا يرفض قضاؤه هو من يرجع بثقافته إلى المنابع الأصلية ،

والجذور البعيدة ، من خُلّص الأعراب الذين سكنوا البادية وتابعوا مدلولات الألفاظ وهي تخطو خطواتها الأولى ، واستقرّت في أعماقهم المعاني الوصفية للكلمات ، وكثر تداولها فيما بينهم ، فإذا قلّ التداول للفظ فخفي معناه لأنه لم يذع ، ولم ينتشر ، أو لم يستعمل عندهم بالمعنى المراد منه فإنه حينئذ يكون بعيدا غريبا أقول : إننا نرتضي قضاء من استقى ثقافته من هذه الينابيع الثرّة عن خلص الأعراب لا عن غيرهم حتى لو كانوا من المولّدين . أما من لم ينظر في ثقافته إلى هؤلاء ، ولم يتتلمذ عليهم ولم يستمدها منهم ، من أنصاف المتعلمين والمستغربين فإننا لكلامهم رافضون ولقضائهم رادُّون .

مخالفة الوضع

مخالفة الوضع : وهو أن تكون الكلمة مخالفة لما ثبت عن الواضع سواء خالفت القياس الصرفي أيضًا أولا ؛ فمدارُ المخالفة على ما ثبت عند الواضع بغض النظر عن القياس المذكور وانظر إلى قول المتنبي يمدح أميره سيف الدولة فيقول :

فإن يك بعضُ النّاسِ سيْفا لِدَوْلَةٍ فَفي النّاسِ بُوقاتٌ لها وَطُبُولُ

يمدح المتنبي أميره فيقول له : لئن كنت سيفا قاطعا لدولتك تحرّر الموازين ، وتقيم العدل ، وترفع الظلم فإن سواك من الملوك بمثابة الأبواق والطبول لا أثر لهم ، ولا غناء فيهم .

فإنّ «بوقات» جمع لبوق وهو (المزمار) ولقد جمعه الشاعر جمع مؤنث سالم ولم يجمعه جمع تكسير مخالفا بذلك الوضع ؛ إذْ ورد جمعه جمع تكسير على «أبواق» أما جمعه جمع مؤنث سالم فلا يصح لعدم توافر شروط هذا الجمع فيه فتكون الكلمة جمعت مخالفتين ما ثبت عن الواضع ، ومخالفة القياس الصرفي .

ومثال ما خالف الثابت عن الواضع ووافق القياس الصرفي «يأبى» بكسر الباء مضارع «أبَى» فلأنه مخالف لما ثبت عن الواضع إذ الثابت عن الواضع «يأبَى» بفتح الباء لا بكسرها فهو غير فصيح على أن ما جاء موافقا لما ثبت عن الواضع وإن كان مخالفا للقياس الصرفي فمثل «عور واستحوذ» فالقياس فيهما قلب الواو ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها في «عوِرَ» وتحركها وانفتاح ما قبلها بعد نقل حركة الواو إلى الساكن قبلها في «استحوذ» إذ إنها فعل ماض ثلاثي مزيد بثلاثة مبني للمعلوم فكان القياس أن تقلب الواو ألفا ولكنها جاءت عند الواضع على هذا النحو ومع ذلك فهي فصيحة وما قبلها «عَوِر» فصيحة كذلك .

فصاحة الكلام

ضعف التأليف

عرفنا فيما سبق أن الكلمة المشرقة الناصعة هي مع مثيلاتها اللبنات التي يُبنى منها الكلام ، فإذا توافقت في بنائها وتلاءمت ، وسهل فهم التركيب معها فلم تربك السامع بتشويشها ، وخللها ، وسوء نظمها ، وعدم وضوح دلالتها ، ولم تخرج عما يوجبه الاستخدام الأمثل لنحو العربية ، فإن الكلام الذي يأتي على هذا النحو هو الكلام الذي يحقق فصاحة اللسان ، وحلاوة التعبير بخلوصه من ضعف التأليف ، وتنافر الكلمات ، والتعقيد اللفظي والمعنوي .

ويُراد بخلو الكلام من ضعف التأليف أن تكون تراكيبه صحيحة سليمة آتية وَفْق المقاييس النحوية التي دُوِّنت بعد استقراء كاملٍ لكلام العرب الفصيح الذي نقل نقلا صحيحا عن طريق الرواة الذين حفظوا النصوص حفظا سليمًا ثم قاموا بتبليغها ، وتوصيلها إلى من طلبها ، وسعى إليها ، وبذلك يكون النحو أداةً لتقويم اللسان ، وضبطه ووزنه حتى لا يخرج في بيانه وكلامه على غير

ما حفظته صدور الرواة ، وقامت بنقله ، وتبليغه ، وضبط حركته . إن هذا الضبط هو الذي يرفض أن يتقدم المعطوف على المعطوف عليه ، أو أن يتخلف إعراب التابع عن إعراب المتبوع ، أو أن يُفْصل بين المتضايفَيْن أو أن يعود الضمير على متأخر لفظًا ورتبة .

إن النحو يتطلب في بناء الجملة علاقات عضوية داخلية ، حتى يتضح المعنى ويشرق ؛إذ إن الإعراب فرع المعنى ، وعدم الالتزام بتلك العلاقات وملاحظتها يفقد الكلام مَيْزته عن الإبانة والظهور على أن في الأداء للكلام العربي على حسب قوانين النحاة ومعاييرهم رنينا موقّعا ، وأداء متفردا واللحن النحوي آنذاك سيكون كالنّغمة الناشزة في اللّحن المنسق الجميل لذا اشترط البلاغيون لتحقيق فصاحة الكلام سلامته من الخطأ في التأليف ، والضعف فيه . ذلك أن الإتيان بالكلام على خلاف ما تقضي به قوانين اللغة يجعله فاقدا لانسيابه الهادئ داخل الأذن عاريا من خلابته ، وروعته ، وتأثيره .

خذ قول الشاعر :

جَزَى بَنُوه أبا الغَيْلانِ عن كِبَرٍ ... وَحُسْنِ فِعْلٍ كما يُجزَى سِنمّارُ

أرأيت إلى الشاعر كيف يدعو على أبي الغيلان أن يجزيه أولاده مع كبر سنه وحسن فعله معهم جزاءً كالجزاء الذي وقع لسنمار بما له من قصة ذائعة مشهورة تضرب للخير يقدّمه الإنسان فلا يلقى في مقابله إلا الشر والعقوق والكفران وأنت ترى الشاعر قد جانبَه التوفيق حين أضْمر قبل ذكر المرجع والمفسّر إذ لا يغيب عنك أن الضمير في قوله : «بنوه» عائد على «أبا الغيلان» وهو لم يُذكر قبل الضمير ، لا لفظا وهذا بيّن واضح ، ولا معنى لعدم وجود ما يقتضي تقدّمه ، ولا حكما ؛ لأنه محكوم عليه بالتأخر لمفعوليته .

إن الكلام العربي الفصيح هو الذي تأت كُل كلمة فيه قارة في مكانها الصحيح ليس لها أن تتقدم عنه أو أن تتأخر فما موقعه أن يأتي مقدما يأتي مقدما ، وما موقعه أن يأتي مؤخرا يأتي مؤخرا ، وما مجاله الإضمار لا يأتي

مذكورا وبمثل هذا يستوي كل شيء في مكانه ، ويصح ، ويسلم ، ولا يلحقه عيب أو يوجه إليه اتهام بخلل أو قصور .

وغنيٌّ عن الإشارة والبيان أننا بذلك نتوخّى سلامة العبارة ، وصِحّة الأسلوب لكن إذا حقق التقديم أو التأخير ، أو الإضمار ، أو غير ذلك مزية للكلام يفرضها الموقف ، ويتطلبها المقام ، ولم يخرج بذلك عما ارتضاه النحويون من معايير فإن ذلك من تمام حسن الكلام وبلاغته إذ يفصح عن مراد المتكلم ، ويكشف عما يريد أن يُبِين عنه ، وأن ينقله إلى المتلقي ، وتلك هي البلاغة المنشودة التي يتغياها ويسعى نحوها صانع الكلام ومنشؤه .

إن الاحتكام إلى قواعد النحو ضرورة أساسية ، وشرط لا يمكن تخطّيه ولا تجاوزه للوصول إلى فصاحة الأسلوب وسحر البيان ، وجمال العبارة .

أرأيت إلى الشاعر الذي يريد أن يزيد من وثاقة أن الجاه والسلطان لا يخلّدان أحدا لأن ممدوحه الذي يتحدث عنه ، ويشدو بفضائله ومزاياه قد حقق سنام المجد وذُراه ولو كان هناك من يخلَّد لهذا لكان هو ، ولكن أحدا لم يخلق للخلود .

والمتلقي لهذا المعنى النبيل من الشاعر سوف يضرب رأسه بكفه حين يبصر كلماته التي تتغنى بالطّيب من المعنى يجانبها الصواب ، ويخذلها التوفيق ، فتضل الطريق الأقوم ، في حسن التعبير ، وروعة الأداء .

والخبير باللغة حين يستمع إلى نظم الشاعر ، وقد تخلخل فيه الإيقاع الهادئ ، وفقد انسجامه المتوافق يقول : ليت الشاعر لم يقع فيما وقع فيه . ولكن التمني هنا لا يجدي ولا يفيد والآن إلى نظم الشاعر الذي لم يُجدْ فيه التأليف فجاء على ما ترى :

وَلَوْ أَنَّ مجدًا أَخْلَدَ الدَّهْرَ وَاحِدًا ... من النّاس أَبقَى مجدُهُ الدَّهْرَ مُطْعِمَا

ولن يعوزك أن تعرف أن الخلل قد أتى من طريق الإضمار قبل ذكر المرجع والمفسّر حين عاد الضمير في قوله : « مجده » على قوله : « مطعما » وهو لم يذكر على معنى من المعاني ، ولا على نحو من الأنحاء .

ومن نافلة القول أن نكرر أن فصاحة الأسلوب تقتضي أن تُوضعَ كلُّ كلمة في المكان الشاغر الذي ينتظرها ، والذي هو أولى وأحق بها بلا تقديم ولا تأخير .

تنافر الكلمات

ومما يفقد الأسلوب حلاوته ، ويذهب به بعيدا عن مجال الفصاحة ما يشيع بين الكلمات من عدم التلاؤم ، والتراحم ، والتوافق ، والتواصل ، والتعاطف والتوادد ، فلا تصير الكلمة وكأن بها حاجة ملحة إلى ما قبلها ، أو حنينا مستبدا طاغيا إلى ما بعدها ، بل تستشعر روح الغربة والعداوة ، وتبصر ريح الفرقة والقطيعة ، وترى الخصومة تسود بين الكلمات المتجاورات ، فلا تتجاذب ولا تتعانق ، ولا تتلاقى ، ولا تتساند ، وإنما تتنافر ، وتتباغض ، وتتباعد وتتعادى ، مما يجعل اللسان وهو ينطق بها كلها ينطق بها وهو مرهق متعب ، معنًّى ، مكدود ، من شدة ضغطها عليه ، ومن عظم تنافرها ، وفداحة ثقلها ، وعدم سيولتها ، وخفتها .

إن الكلمة منفردة قد تكون سيالة ، منسابة ، خفيفة ، رشيقة ، عذبة ، سهلة على اللسان عند النطق بها ، ولكنها حين تنظم مع غيرها ، وترصف مع جاراتها ، وتلفق مع سواها ، ينشأ عن هذا النظم ثقل وصعوبة واضطراب في أداء اللسان عند النطق والكلام ، مما جعل الجاحظ يصرّح بقوله : « ومن ألفاظ

العرب ألفاظ تتنافر وإن كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض استكراه فمن ذلك قول الشاعر :

وقــبرُ حَــرْبٍ بمكــان قفــر　　　وليس قُرْبُ قبرِ حَرب قبْـر»[1]

وحاول أن تقرأ هذا البيت بسرعة مرة واحدة فضلا على أن تقرأه مرة ومرات ، وسوف تجد من الصعوبة ما تكاد أن تتوقف بسببها عن متابعة القراءة ، وتردد مع خلف الأحمر ما أنشده في هذا المعنى .

وَبَعْضُ قَـرِيضِ القـومِ أولاد عَلَّـةٍ　　　يَكــدُّ لِسَــانَ النَــاطِقِ المــتحفِّظِ[2]

وأنت تقرأ قول الأعشى :

وقد غَـدَوْتُ إلى الحـانوت يتـبعني　　　شاوٍ مشلٌ شـلولٌ شُلْشُـلٌ شَـوِلُ

فتجد لاجتماع كلماته ثقلا على اللسان ، وصعوبة في النطق ، وعدم اهتزاز له ، وطرب عند السمع فلا يسعك إلا أن تحكم عليه بالوخامة والخلو من الملاحة والحانوت : دكان الخمّار : شاو : الذي يشوي اللحم : ومشل : خفيف وشُلْشُلٌ : كثير الحركة ، وشولُ : يحمل الأشياء .

وعند هذا البيت الذي عاب البلاغيون «شأشأته أو شلشلته» وحكموا عليه بالتنافر والبعد عن الفصاحة قد توقف الأستاذ الدكتور محمد النويهي في كتابه الشعر الجاهلي منهج في دراسته عند حديثه عن البلاغة الصوتية التي تعتمد على الحرف المتردد والحكاية الصوتية[3] إذ رفض حكم البلاغيين عليه بالتنافر والثقل ، ورأى أن قيمته الفنية إنما تظهر أكثر ما تظهر حين يوضع في موضعه بين ما يسبقه وما يليه وهو بصورته التي جاء عليها إنما جاء قصدا للتظرف ورغبة في الخلاعة والمجون ؛ إذ إنه يرسم صورة واضحة لشاعر مرح فرحان ومعه مجموعة من زملائه مسرعين إلى الحانة يتراقصون ويتمايلون ، ويعبثون

(١،٢) البيان والتبيين ١/٣٧ ، طبعة دار الكتب العلمية ببيروت .

(٣) الشعر الجاهلي ١/٦٧ وما بعدها دكتور محمد النويهي بتصرف .

في طريقهم إلى مجالس الشراب والطرب وغلامهم الغض الرشيق يتبعهم ويرقص كرقصهم إن الكلمات الخمس : «شاو مشل شلول شلشل شول» إنما تصور ترسخ السكارى حينما تستبد بهم الخمر ، فالكلمات المتلعثمة التي اضطربت مخارج حروفها ، واختلطت لم تتجاوز الرؤية الحقيقية لمشهد رأته فصورته ومثلته فما يرى من ثقل فإنما هو ثقل نابع من وحي الموقف ، ومن حكاية الحقيقة وماذا تنتظر من سكارى ثملين قد لعبت الخمر برءوسهم ، وعبثت بعقولهم إلا أن يثقل السكر ألسنتهم ، ويضغط عليها ، ويحول بينها وبين التدفق والسيولة والانطلاق ؟

ويخيّل إليَّ أن أستاذنا كان يستنصر بكلمات الجاحظ يقوي بها حجته ، ويوثق بها دعواه ؛ إذ إن صاحب البيان والتبيين يقول : «ومتى سمعت ـ حفظك الله ـ بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ، ومخارج ألفاظها ؛ فإنك إنّ غيّرْتها بأن تلحن في إعرابها وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديِّين ، خرجْتَ من تلك الحكاية ، وعليك فضل كبير ، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، ومُلْحة من مُلَح الحُشْوة والطَّغام فإياك أن تستعمل فيها الإعراب ، أو أن تتخيَّر لها لفظا حسنا ، أو أن يجعل لها من فيك مخرجًا سريا فإنّ ذلك يفسد الإمتاع بها ويخرجها من صورتها ومن الذي أريدت له» (١) .

وليس يخفى أو يغيب أن الكلام إنما هو تصوير صادق وأمين لصورة صاحبه ، وأنه يعبر عنه ويحتويه ، ويحمل روحه وأحاسيسه ، ومشاعره ، وأن الصدق مع الموقف النفسي والشعوري هو مما يحسب له الحساب ، ويعول عليه ، ويعتد به ، ويوضع في الميزان ، ومن الظلم لصانع الكلام أن يطلب منه ، وهو فكه هازل ، عابث ، ما يطلب منه ، وهو جاد ، صارم ، ملتزم ، والشاعر

(١) البيان والتبيين ٨١/١ .

الذي يستطيع أن يصور لنا مواقف التظرف والمجون تصويراً فكهاً دقيقاً هو الشاعر المتمكن المتفوق الذي يذلل الشامس ، ويلين العصى ، ويدني النافر ولا يحقق ذلك كله إلا من رُزق موهبة خارقة ، وعبقرية جبارة ، وعقلا فذا عملاقا .

لكن روعة الفكاهة إنما تقترن بصياغتها ، وتلتصق بها ، وتتصل بكل شيء فيها ومن ثَمَّ فإن محاولة الاعتداء على الصياغة القوية المؤثرة بالتضعيف ، وعدم التجويد والتحسين ، يفقد الفكاهة روحها ، ويُعرّيها من تأثيرها ، ويباعد بينها وبين ما ترسمه ، وتشخصه ، وتمثله ، فالموقف الفكاهي إنما يعمد إلى تجميل الحياة في عيوننا ، وذلك بتخفيف الأعباء التي تقصم في عنف وقسوة ظهورنا ، وطرح الأحمال الثقيلة التي تَهُدّ قوانا ، وتقوض كواهلنا ، ومحاولة الترفيه عنا بتخليصنا من الهموم التي تضغط علينا ، والتي تحاصرنا ، وتكاد تخنقنا وتقتلنا ، والسبيل إلى كل ذلك إنما يكون بالتعبير الراقي الممتاز والمركز .

إن الصياغة هي التي تبرز الفكاهة ، وتجلّيها وتحدّد ملامحها ، وأنها تبلغ قمة التأثير حين يحسِنُ الصائغُ صياغتها وعرضها ، وأنها تنطفئ وتذبل ، وتفقد حيويتها ونضارتها لو عرضت في معرض رثٍّ لا يبرز مفاتنها ، ولا يكشف عن أسرار الجمال فيها ، وأن الصياغة التي تبرز الفكاهة والتي نتكلم عنها إنما هي الصياغة الشعرية التي تستنجد بكثير من التروّي ، والفكر ، والتأمل والتجربة مع رهافة الحس اللُّغوي ، وجمال الذوق الفني ، ورحابة الموهبة المطبوعة ، والقدرة على التقاط الشوارد من الأفكار ، والتمكن من انتقاء الألفاظ ، واختيارها ، ورصفها ، وحسن نسجها بوضع كل لفظ في موضعه الملائم مع الاستعانة بقيم العربية الصوتية ، والخيال السابح المحلق الذي يرى الأشياء بعينه السحرية النافذة فيلونها بغير ألوانها وينفخ فيها من روحه روحًا ومن من حياته حياة ، ومن وجوده وجودا ويبعثها بعثا حيًّا جديدًا .

إن بيت الأعشى في تقديري لم يُصَبْ بالنضوب والجفاف ، والذبول ، والانطفاء لما به من ثقل يمثل ثقل الكلمات على ألسنة الندامى والسكارى الهازلين وإنما لهذا ولما أصابه من شأشأة أو شلشلة أفقدته عذوبة الجرس ، وجمال النبر ، وحسن الإيقاع ، وروعة الصوت ، وحلاوة النغم ، مما يجعل الأذن وهي تصغى له وتسمع ، لا يهتز معها الجسد ، ولا ينتشي ولا يطرب ، ولا يشعر بحسن الإيقاع ، ولا بعذوبة النبر وتنغيمه .

التعقيد

ومن دواعي الحسن وأسباب الفصاحة للكلام أن يورد المتكلم كلامه بعيدًا عن التعقيد ، وذلك بأن يختار كلماته اختيارا حسنا ، وأن ينظمها في التراكيب نظما جميلا وهو حين يفعل ذلك يلحظ في كل ما يفعل أن تدل الألفاظ على المعنى الذي يريده في سهولة ويسر ، وأن تُؤَلَّفَ تأليفا جيدا لا غموض فيه ، ولا التواء ، ولا تعقيد بحيث لا يبذل العقل في فهم المراد منه فهما جيدا أكثر مما يجب أن يبذل في المشرق الفصيح .

والتعقيد على هذا هو ما يوصل إلى كد الذهن ، وإرهاقه وإجهاده بسبب محاولته تفسير الفكرة ، وفهم معناها من خلال العبارة التي تؤديها ، والتي لا تنهض للقيام بها في سرعة نتيجة لما بها من خلل سواء نشأ من اضطراب الكلمات وسوء تنظيمها ، وعدم وضعها الوضع الأمثل ، وتشويشها ، أو نشأ من القصور في أداء المعنى بسبب صعوبة الانتقال من المعنى الظاهر للكلمة إلى المعنى المراد والمقصود .

وعلى هذا فالتعقيد نوعان :

١- تعقيد لفظي ٢- تعقيد معنوي

التعقيد اللفظي

التعقيد اللفظي : وينشأ من عدم وضع الكلمات الوضع الأقوم والأمثل الذي يفرضهما علم النحو وذلك إنما يكون بتقديم ما لا يستساغ أن يتقدم ، وكذلك بتأخير ما لا يستساغ أن يتأخر ، وبالفصل بين الكلمات التي يجب أن تتجاور وتتلاصق ، مما يؤدي إلى خفاء الدلالة على المعنى ، وهو يتدرج بين الشديد والخفيف ، فالشديد كقول الشاعر :

فَأَصْبَحَتْ بعدَ خَطَّ بهجَتِها كَأَنَّ قفرًا رُسُومَهَا قَلَمَا

فالشاعر يتحدث عن دار صارت مجدبة بعد أن تركها الأهل ، وغادرها الأحباب وقد كانت من قبل تحتشد في أفنائها مظاهر البهجة ، وتثوي بين جدرانها ألوان السعادة . إن الدار قد صارت من شدة جدبها قفرا حتى لكأن قلما خط رسومها .

وأصل الكلام : فأصبحت قفرا بعد بهجتها كأن قلما خط رسومها .

وأنت حين تدير هذا البيت في ذهنك ثم تعيد كل شيء إلى أصله وتضعه في مكانه الذي هو أحق به وأولى كما هو ماثل أمامك تجد الصورة تختلف وترى في البيت من الفصل ، والتقديم ، والتأخير ، ما عقّد المعنى وصعّبه وجعله يصل إلى درجة كبيرة من الشدة ، فإذا رمت تحديد الفصل ، فقد فصل بين المتلازمين المضاف والمضاف إليه بالفعل « خطّ » أي أصبحت بعد بهجتها قفرا كما فصل بين « كأنّ » واسمها بلفظ « قفرا » الذي هو خبر « أصبح » وبلفظ « رسومها » الذي هو مفعول « خط » ، كما فصل بين الفعل ومفعوله الفعل « خط » ومفعوله « رسومها » بهذا الفاصل الكبير مما صعّب الفهم وجعله شاقا عسيرا .

والخفيف كقول الشاعر :

جَفَخَتْ وَهُمْ لا يَجْفَخُونَ بِـهَا بِهِـم   شِيَمٌ على الْحَسَبِ الأغَرِّ دَلائِـلُ

وكرّرْ هذا البيت ، وسوف تجد ثقلا على اللسان ، وصعوبة في النطق من اجتماع الكلمات على هذا النحو ؛ وانظر إلى الشاعر وكيف أراد أن يجعل من الفضائل التي تنبعث عنهم من يباهي بهم ، ويزدهي ، ويزدان فتتشرف هي بهم ، ولا يتشرفون هم بها ، فأضاع هذه المباهاة بهذه الأحمال الثقيلة التي ضغط بها على الألسنة وهي تدير كلماته في الأفواه فأبطأ من انطلاقتها ، وكيف ساعد الفصل بين الفعل وفاعله « جَفَخَتْ شِيَمٌ» بجملة الاعتراض (وهم لا يجفخون بها) وبين الجار والمجرور في قوله : «بهم» ومتعلقه وهو الفعل « جفخ» على مزيد من المشقة والإرهاق أضنى التركيب فأصابه بالانطفاء والذبول .

التعقيد المعنوي

التعقيد المعنوي : وفيه يصعب فهم المعنى ، وتأتي الصعوبةُ من خطأ الانتقال من المعنى الأول إلى المعنى الثاني ؛ ومن ثمّ يكون الكلام خفيَّ الدلالة على المعنى المراد بسبب استعمال الألفاظ في غير معانيها الحقيقية حتى يلتبس الأمر على السامع والمعنى الأول : هو المفهوم من اللفظ لغة .

والمعنى الثاني : هو المعنى المقصود والمراد كقول عباس بن الأحنف .

سَأَطلبُ بُعْدَ الـدَّارِ عـنكم لتقربُـوا   وَتسْكُبُ عينـايَ الـدُّموعَ لتجْمُـدَا

والشاعر يريد أن يقول إنه يتحمل لواعج الشوق ، ويوطن النفس على مكابدة الأسى والحزن علّه يحظى بوصل دائم ، وسرور لا ينقطع وفرحة تبقى وتستمر فأنت تراه قد جعل سكب عينيه للدموع كناية عن أسى قلبه ، ولوعة فؤاده لفراق الأحبة ، وهو إلى هذا الحد موفّق ومصيب لا اعتراض عليه

ولا مؤاخذة ولكنه ينتقل من هـذه الإصـابة والتوفيـق إلى شـيء آخـر ؛ إذ تـراه يستعمل « جمود العين » كناية عن الفرح والسرور ، حتّى يحظـى بوصـل دائـم من الأحبّة لا ينقطع وهذا أمر بعيـد وغـير مقبـول ؛ لأن « جمـود العـين » إنمـا يُعبَّر به عادة عن بخل العين بالدمع عند إرادة البكاء في مواطن المرارة والحـزن ومن ثَمَّ خفـي المـراد لمـا في تخـريج الكـلام مـن تعسّـف وهـذا هـو التعقيـد المعنوي .

هذا ، وإنه لمن الضروري أنه يجب ألا يغيب عنا أن الدعوة إلى الوضوح في الأسلوب بحيث لا يشقُّ فهمه ، ولا يغمض معنـاه ، ليسـت دعـوة إلى التسـطيح في الأفكار ، ولا إلى الشقشقة اللّفظية الفارغة ، والتي تكون أقرب إلى الهامشـية والعامية ، التي لا تثير فكرا ، ولا تحمل مضمونا منها إلى أي شيء آخر .

إن معنى كون الكلام أن يسابق معناه إلى قلبك لفظه إلى سمعك ليس معنـاه هذا الابتذال الرخيص للغة الأدب ، وهذا الهوان الذي يُعْرض به الفن القولي مـن نثر وشعر في ضعة وتخاذل وضئولة ، بحيث لا يبـذل في الوصـول إلى دقائقـه وخوافيه جهد عقلي ، ولا تقدم بين يديه طاقة فكرية يسـتثيرها بنـاؤه اللغـوي ، ويتحـتم تقـديمها لفهمـه ، وبـذلها لمعرفـة أسـرار تراكيبـه ، وخصـائص تلـك التراكيب ، وتحقيق اللذة من خلال بلوغها ، والانتهاء إليها .

إنَّ معنى الوضوح الذي يتحدث عنه البلاغيـون ألا يأتي الكلام مكوّمًا مُرْبكًـا مُشَوشًا ، مختلا في بنائه وفي دلالـة ألفاظـه بحيـث يحـوج في فهمـه إلى إعـادة بنائه بناء صحيحا ، وإلى وضع ألفاظه في مكانها الملائم ، وإلى تسوية تراكيبـه ، وإلى ربط الدلالة الحقيقية للألفاظ بـالمراد منهـا ربطًـا قويـا فيـه اسـتواء ، وفيـه استقامة ، ثم الانتقال من بعد ذلك إلى الوصول لفهـم المعنـى الـذي قصـد إليـه الفنان حتى لا يكون معنى ضحْلا فيه ضئولة ، وشحوب ، وهزال .

إن معنى كون الأسلوب قريبًا في فهمه ، غير غامض في معناه أن يكون المعنى الذي تبذل في سبيل الوصول إليه الطاقة الفكرية ، والذي رشح بسببه الجبين ، وكدَّ مَعَهُ الخاطر معنى عميقا قويا ، جاءت به لغة عميقة قوية .

إن هذا الأدب هو الأدب الذي يجب أن تُعبّأ من أجله الطاقات ، وأن تُبذل في سبيل تحقيقه كل القوى والإمكانات ، ولذا كان مدح البلاغيين للأبيات وللأساليب التي تحمل كل المعاني الغريبة النادرة ، والأمثال الشاردة السائرة ، والأفكار البديعة ، التي تأتي على غير مثال ، والتي تحوج في فهمها إلى التأمّل ، والتَّروِّي ، والدَّعة ، والصّبر ، والأناة . والأديب ذو الرؤية الواسعة ، والشاعر الملهم الفنان إنما يقيم بناءه اللغوي على أساس صحيح وقوي يأتي ثمرة لموهبته ، ولنظرته العميقة النافذة ، ولقدرته المتفردة المتميزة التي تحسن انتقاء الألفاظ لما يشاكلها من المعاني ، ولتفوقه وسعة محصوله ، سوف تنثال عليه الألفاظ انثيالا ؛ وسوف يختار منها ما يعبر بها عن المشاعر التي تزدحم في صدره ، وتجول في فؤاده ، وتتردّد في خاطره ، وهو في انتقائه واختياره لا يعمِد إلى وضع مُوازنة بين لفظ وغيره ليختار اللفظ الأمثل وإنما ستتوارد على ذهنه تلقائيًا ، وستتداعى إليه في تكاثر وتزاحم وهو بحاسته الفنية سيختار أداته اللُّغوية التي يرقى بها أسلوبه ، ويجود بها تعبيره .

والخلاصة أن الجهد المبذول في الكلام المعقد المشوّش جهد خارق يوصّل إلى معنى ضحْل هزيل وهذا ما نرفضه ونأباه ، ولا نقبل به ولا نرتضيه ولكننا نقبل بالجهد المتروِّي الذي يسعى للوصول للمعنى النادر الغريب الذي حققه عمق البناء اللغوي ؛ لأنه جهد يساوي المعنى الذي انتهى إليه ومن هنا كان الوصول إلى المعنى البعيد ، والبديع المخترع الذي يأتي على غير مثال ، حقيق بأن يُضَحَّي من أجله بأقصى جهد ، وكل وقت بلا ملل أو كلل .

فصاحة المتكلم

إن الكلام الفصيح على النحو السابق لا يمكن أن يأتي به ، وأن يحققه إلا متكلم فصيح ، يعرف كيف يختار كلماته ، وكيف يسبكها سبكا جيدا ، وينظمها نظما حسنا ليتلقاها عنه المتلقي ؛ فتحقق لديه اللذة والمتعة ، وتحركه إلى الهدف الذي يريد توجيهه إليه في قوة واقتدار على نحو لا يملك معه إلا أن يذعن ويطيع ويسلم إن المتكلم الفصيح صاحب ملكة قائمة بنفسه يستطيع بسببها ومن خلالها أن يعبر تعبيرا صادقا عن كل ما يستكنُّ في أعماقه ، ويثور بداخله من خواطر ، وأفكار وأغراض فالفرح والحزن ، والرضا والغضب ، والمدح والذم ، والوصف والفخر ، والهجاء والمدح ، والسياسة والنصح ، كلها أغراض للكلام ، إن أراد أن يعبر عنها عبر عنها بأسلوب فصيح الكلمات ، رشيق العبارات ، واضح المعنى والدلالة جيِّد التأليف ، حسن السبك ، وحتى يكون فصيحا لابد أن تتحقق لديه المقدرة حتى يعبر عن جميع الأغراض في كل وقت عندما يشاء فإن واتاه التعبير عفوا دون أن يصدر عن أساس نفسي ثابت فإن ذلك يمنع من أن يدخل في نطاق الأبيْناء الفصحاء .

إنّ فصاحة المتكلم إنما ترجع في حقيقة الأمر إلى جذور الموهبة المقتدرة والتي تغذّت من منابع الثقافة الأصيلة ، بعد أن طالت صحبتها ومعايشتها لفصيح القول وروائع البيان ؛ فاكتسبت قدرة خارقة وصار لديها حسٌّ مرهف بسبب استغراقها الاستغراق الكامل في ظلال الآداب الحيَّة الناضجة بشعرها ونثرها ، وأصبحت من كثرة الدُّربة ، وطول الصُّحبة ، وغزارة المران بحيث لا يستعصي عليها قول ، ولا يتأبى عليها غرض إذ تواتيها قدرتها بما تريده ، ويسعفها بيانها بما تحاول أن تخوض فيه من كلام عذبٍ رشيق ، وحلو فصيح .

وعلى هذا ففصاحة المتكلم ملكة نفسية تغذّيها روافدُ الأدب ، وتجعلُها من طول الدربة والممارسة قادرةً على أن تقول كلاما فصيحا في كل الأغراض ، وكل الأوقات ، وليس شرطا أن تنطق بالفعل ؛ إذ إنها قدرة واستطاعة حتى وإن لم تتكلم بكلمة ، أو تنطق بحرف .

* * *

البلاغة

تدور البلاغةُ في المعاجم اللغوية على ما يُفْهَم من مادتها التي تدل على الوصول والانتهاء ؛ إذ إنها تنهي المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ ففي القاموس المحيط : بلغ المكان بلوغا وصل إليه أو شارف عليه وفي اصطلاح أهل الفن إنما تقع وصفا للكلام والمتكلم ولا تكون وصفا للكلمة إلا إذا أريد منها الكلام وعليه فيمكن أن يقال كلام بليغ ، ومتكلم بليغ ، ولا توصف بها الكلمة الواحدة إلا إذا أريد بها الكلام .

بلاغة الكلام

بلاغةُ الكلام أن يكون مطابقا لمقتضى الحال مع فصاحته ، وفصاحة أجزائه ومعنى هذا أن تمتلك الصياغة من الخصائص والأسرار والهيآت ما تعبر به أصدق التعبير عن المعنى الذي يتحقق به وفاء الكلام لما يفرضه الموقف ، وما يطلبه الحال ، ويدعو إليه المقام الذي يقتضي من المتكلم أن يورد كلامه في صورة خاصة .

فالحال : هو الأمر الداعي للمتكلم أن يجعل في كلامه شيئا زائدا على أصل المعنى . مقتضى الحال : هو ذلك الأمر الزائد الذي اعتبره المتكلم في كلامه لاقتضاء الحال إياه وبمعنى آخر هو الصورة الخاصة التي يورد المتكلم كلامه عليها إنّ مقتضى الحال هو الذي على مراعاته تتحقق البلاغة في الكلام أو تختفي ؛ إذ إنه يأخذ بيد البليغ إلى ا لطريق الذي ينشئ على أساسه فنًّا جيدا ، فهو يُحدِّدُ المسار الذي يجب أن يسير فيه ، ويدلُّه على الأسلوب الذي يؤلفه ليكون مناسبا وملائما للحال التي تقتضيه ، وذلك بأن يورد كلامه في صورة خاصة .

إن مقتضى الحال هو وضع الكلام الملائم في المكان الملائم ، ومسايرة الأسلوب للمؤلف ، فيكون سهلا في الأغراض والمواقف التي تتطلب السهل من الكلام ، ويكون جزْلاً فيما يناسب الجزالة ، مُسْهبا فيما يقتضي الإطناب مضغُوطًا ، مركزًا فيما يقتضي الإيجاز ملائما لعقلية المخاطبين فللخاصة خطابها الذي لا يتخطاها إلى غيرها ، وللدهماء خطابها الذي يلائم طبقتها كما أن لخالي الذهن خطابًا لا يستوي مع خطاب المنكر وإنما يكون مخالفا له ، وبهذا يكون مقتضى الحال من البلاغة في القلب والصميم .

أما مطابقةُ الكلام لمقتضى الحال فهو اشتمال الكلام على تلك الصورة الخاصة التي اقتضاها المقام . خذ المنكر للوحدانية عند مخاطبة حاله أو مقامه أنه « منكر » فالمقام « الإنكار » ، والإنكار يُقتضي من المتكلم صورة خاصة في كلامه هو « التأكيد »، والإتيان بالكلام مشتملا على تلك الصورة الخاصة التي هي « التأكيد » كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ مطابقة لمقتضى الحال . وأنت ترى أن في هذا المثال أموراً ثلاثة :

الحال : وهي الإنكار الشديد من المخاطب مقتضى الحال : وهو التوكيد إذ الحال يقتضيه ليزيل ما عند المخاطب من إنكار مطابقة الكلام لمقتضى الحال: وهو الإتيان بالعبارة مشتملة على التأكيد بالمؤكدات المتقدمة وهذه العبارة هي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ .

وانظر إلى قول مَعْن بن أوْس :

لعمرُكَ ما أهْوَيْتُ كَفّي لِريبةٍ ... ولا حَمَلَتْنِي نحو فَاحِشَةٍ رِجْلي

ولا قادَنِي سَمْعي ولا بَصَرِي لَها ... ولا دَلَّني رَأْيي عليها ولا عَقْلي

وَأَعْلَمُ أني لم تُصِبْني مصيبةٌ ... مِن الدَّهْر إلا قد أصابتْ فَتًى قَبْلي

وَلَسْتُ بِمَاشٍ ما حَيِيتُ لمنكر ... من الأمْرِ لا يَمْشِي لمثله مِثْلي

ولا مُؤْثِرًا نفْسي على ذِي قرابةٍ ... وأوثِرُ ضَيْفِي ما أقامَ على أهْلي

فنحن أمام شاعر ممتلئ يتحدث عن نفسه ، ويبسط كلامه في الحديث عن محامدها ، وفضائلها في زهو ، وتيه ، وفخر ، واستطالة ، وأنت تقرأ أبياته فترى لسانك ينساب بها في سهولة وخفة ، وترى معانيها تتسرب داخل ذهنك من غير كد ، ولا تعب ، ولا إرهاق ، تصور يديه في طهارتهما ونقائهما ، وبعدهما عن كل ما يدنسهما أو ما يدعو إلى ريبة ، كما تصور قدميه اللتين لا تحملان إلى ما يثلم العرض ، ويخدش الحياء ، ويستوجب القدح والذم وإن السمع ، والبصر ، والرأي ، والعقل كل أولئك لا تحمله إلى مواطن الريب ولا تقوده إلى مظان الشبهات ثم هو مع ذلك واصل لذوي رحمه وقرباه يقتسم أمواله معهم ، وهو مضياف كريم يقدم الضيف ما أقام على أهله .

فانظر إلى قول الشاعر كيف جعل من الفخر غرضا تحدث عنه وفيه وكيف علم أن غرضه هذا يستوجب البسط والإسهاب فأتى بكلامه على مقتضى مقامه مطنبا ففي هذا القول أمور ثلاثة .

الأول : الحال : وهي الفخر من المتكلم .

الثاني : مقتضى الحال : الإطناب إذ الفخر يقتضيه ويتطلب المد والتوسعة في الحديث .

الثالث : مطابقة الكلام لمقتضى الحال : وهو الإتيان بالكلام مبسوطا مطنبا على النحو الذي شرحته وبينته لك .

بلاغة المتكلم

هو الذي أوتي من القدرة ما يستطيع بها التعبير عما يخالج نفسه من معان مشرقة تتردد في صدره ، وتجول في خاطره ، ولاشك أن مثل هذا يعتمد على ذوق بلاغي يجعله على علم تام بموضوعه الذي يريد الكلام فيه ، كما أنه

يجب أن يعرف أقدار المستمعين الذين يتحدث إليهم ، فيأتي بكلامه على أقدارهم ومن ثَمَّ فهُو يختار للمعاني ما يليق بها من الألفاظ ، والمتكلم البليغ مثل المتكلم الفصيح لا يتوقف وصفه بالبلاغة بأن يعبر بالفعل بل المعوَّل عليه وجود الملكة البلاغية في نفسه كقوة أو قدرة يستطيع التعبير بها في أي وقت يشاء وفي أي غرض .

لكل كلمة مع صاحبتها مقام

مما لا خلاف عليه أنّ لكل كلمة إذا قرنت بأخرى مقاما ليس لها إذا قرنت بغيرها ؛ لأن بلاغة الكلام مطابقتُه لمقتضى الحال ، وملاحظة هذا الخصوص في الكلام الذي يُؤَدَّى به أصل المعنى هو مقتضى الحال كل هذا مع فصاحة الكلام وفصاحة أجزائه ، وإذا كان لكل كلمة مقام حين تقرن بأخرى يخالف غيرها إذا قرنت بغيرها فإن أوضح ما يدل عليه أداء الفعل مع « إذا» فإن لها معه أداء يخالف أداءه مع « إن» إذا صاحب الفعل هذه أو تلك في تركيب واحد .

« إن وإذا» للشرط في الاستقبال وهما يدلان على ترتيب الجواب على الشرط في المستقبل ، لا في الماضي ولا في الحاضر ؛ غير أنّ « إذا» تُستعمل في الأمر المقطوع بوقوعه ، و« إن» تستعمل في الأمر المشكوك فيه تقول : إذا طلعت الشمس جئتك ، ولا تقول : إن طلعت الشمس جئتك لأن طلوع الشمس أمرٌ متيقن مقطوع بوقوعه فيستخدم معه « إذا» لا « إن» وتقول : أزورك إن زرتني ، ولا تقول أزورك إذا زرتني لأنّ الزيارة مشكوكٌ فيها ؛ فقد تقع وقد لا تقع ، وإذا كانت (إذا) تستخدم في الشرط المقطوع بوقوعه و(إن) تستعمل في الشرط المشكوك فيه فإنهما يشتركان معًا في عدم الجزم بعدم وقوع الشرط ، وعلى هذا فإنّ « إذا» تستخدم في الشرط المجزوم بوقوعه ، أمّا في عدم الجزم بعدم وقوعه فلا تستعمل فيه ، كما لا تُستعمل في الشرط المتردد

أو المشكوك فيه ، و« إن» يشترط فيها عدم الجزم بوقوع الشرط أو عدم وقوعه[1] قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (الأعراف:١٣١) .

فأنت ترى أنه عبّر في جانب الحسنة ؛ لأنّ المقام مقام جزم بـ « إذا» إذ إن المقام لها فهي موضوعة للجزم ، ومما يدل على ذلك تعريفها بـ « أل» الجنسية ومطلق الحسنة مجزوم بوقوعها ، على أنّه في جانب السيئة عبّر بـ« إن» لأن المقام فيه شك وتردد وعدم جزم بالحصول ؛ إذ السيئةُ بجانب الحسنة المطلقة نادرة الوقوع ، والنادر مما يشك في وقوعه يقول صاحب الكشاف :

« فإن قلت» كيف قيل فإذا جاءتهم الحسنة بـ « إذا» وتعريف الحسنة وإن تصبهم سيئة وتنكير السيئة (قلت) لأن جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرته واتساعه وأما السيئة فلا تقع إلا في الندرة ولا يقع إلا شيء منها»[2] .

على أن أسلوب الشرط إنما ينهض بأداء وظيفته من خلال السياق الذي يتوافق معه في تلاؤم وانسجام .

ظاهر الحال

عرفت أن الحال هو الأمر الذي يدعو المتكلم إلى أن يعتبر في الكلام الذي يؤدي به مراده خصوصية مَّا وهذه الحال قد تكون أمرًا ثابتا في الخارج واقعا في نفس الأمر يلاحظه المتكلم ويأتي بكلامه موافقا له ، وحينئذ يكون مطابقا لمقتضى الحال ، وموافقا لمقتضى ظاهر حال المخاطب .

---

(١) المطول صـ ١٥٤ ، ١٥٦ بتصرف .

(٢) الكشاف ٢/٨٤ .

إذ إن المراد بظاهر الحال : هو الأمر الثابت في الخارج والحاصل بالفعل فالتأكيد للمنكر موافق للحال كما هو مطابق لظاهر الحال .

وقد تكون الحال أمرا مقدرا ، غير حاصل بالفعل ليس هي ما عليه المخاطب في الواقع فيراعى المتكلم هذه الحال ، غير ناظر إلى ظاهر حال المخاطب ويأتي بكلامه مطابقًا لمقتضى هذه الحال المقدرة فيسمى كلامه حينئذ خروجا عن مقتضى ظاهر الحال .

إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر :

نحب أن ننبه إلى شيء له وجاهته عند أهل العلم من ذوي البيان وهو أن الخبر الذي تفضي به إلى من تخاطبه هو قناة جيدة التوصيل لما تريد أن تبثه إليه مما تمتلئ به نفسك ، ويعتلج في خاطرك من معان وأغراض ولابد والحال هذه من أن تكون الصلة بينك وبين من تتحدث إليه قائمة على أساس راسخ ومتين من تَعَرُّفك على نفسيته وشعوره وعلى استعداده لتلقي ما تلقيه إليه من مفاهيم ، وعلى مدى قبوله لها ، أو تردده في قبولها ، أو رفضه لها . ومن ثمَّ فيجب عليك أن تصوغ عبارتك الصياغة التي تلائم حالته ، وتناسبها بحيث تأتي مطابقة لها تمام المطابقة ، لا تختلف عنها في قليل أو في كثير والمخاطب إزاء ما يلقى إليه من أخبار واحد من ثلاثة :

الأول : خالي الذهن لا علم له مطلقا بالحكم الذي تفضي به إليه والذي يتضمنه الخبر ومثل هذا الذي خلا ذهنه من مضمون الخبر عليك أن تلقي إليه الخبر خاليا من أي تأكيد ؛ إذ إنه في غالب الأمر يتقبل ما يلقى إليه من حكم دون مناقشة ويستقر في نفسه ، فتأكيد الخبر له يعد عبثا وعلى البليغ أن يأتي حديثه خاليا من هذا العبث ومثل هذا النوع من الخبر يسمى **ابتدائيًّا** مثال ذلك أن تقول لمن لم يعرف ربح أخوك كذا من الجنيهات ويسمى هذا الضرب ابتدائيا .

الثاني : عالم بمضمون الخبر ولكنه غير مطمئن إليه ، ولا مستقر في نفسه فهو شاك في أمره ، متردد فيه ومثل هذا الشاك المتردد يستحسن أن يؤكد له الخبر بمؤكد واحد استحسانا ؛ لأنه يتشوق إلى ما يزيل شكه أو تردده فكأنه يطلب نوعا من التأكيد ، ويكفي في هذا تأكيد واحد على سبيل الجواز وهذا النوع يسمى طلبيا لأنّ المخاطب طالب بلسان حاله وقوفه على حقيقة الأمر مثل قول أبي نواس .

عَلَيْكَ بِالْيَأْسِ مِنَ النَّاسِ إِنَّ غِنَى نَفْسِكَ فِي الْيَاسِ

فإنّ هذا الخبر على خلاف العادة ولذا أكد بمؤكد واحد .

الثالث : عالم بمضمون الخبر ولكنه يرفضه ، ولا يقبله ، وينكره ، وحينئذ يتعين على المخبر أن يصوغ خبره له مؤكدا بما يتناسب مع إنكاره حتى يذعن ويسلم بما أخبر به ، وألقى إليه ، فيستقر في أعماقه ، ويثبت في نفسه وهذا النوع يسمى إنكاريا .

تقول لمن ينكر صدقك إني لصادق فإن أصرّ على الإنكار زدته من وسائل التقوية والتأكيد ما يناسب قوة إنكاره فتقول له والله إني لصادق وهكذا .

ويلاحظ أن الخبر هو ما يحتمل الصدق والكذب أصلا لذاته بغض النظر عن قائله والإنشاء بعكس ذلك أي ما لا يحتمل الصدق والكذب أصلا لذاته فإذا لم يلاحظ المتكلم بالخبر ظاهر حال المخاطب ، ولم يعتد به ، وجرى في خطابه على أمر اعتباري تنزيلي لاحظه هو ، واعتد به هو ، وألغى غيره ، وجعل من هذا الذي لاحظه أحوالا ، ومقامات يصوغ كلامه على أساسها ، وينشئ تراكيبه على مقتضاها ؛ فإن ما يأتي به حينئذ يكون خروجا بالكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، ويتحقق ذلك بتنزيل الشيء منزلة غيره وهو لون من ألوان الفن الراقي ، والبلاغة العالية التي تتجاوز الظاهر إلى ما وراءه وتتخطى المرئي المشاهد إلى ما سواه ، حيث تجعل من غير الواقع واقعا تدير

خطابها معه على هذا النحو ، وتجري حديثها معه على هذا الأساس ولذا كان الخروج بالكلام إلى ما لا يقتضيه الظاهر نوعا من الخفاء في الخطاب واللطافة في التعبير ، والدقة في الأسلوب انظر إلى ما تناقله الرواة مما دار في كتب البلاغيين حول بيت بشار الجهير .

بَكِّرَا صاحِبَيّ قَبْلَ الـهَجِيرِ   إنّ ذاكَ النَّجَاحَ في التَّبْكِيرِ

إذ روى الأصمعي أنه قال كان أبو عمرو بن العلاء ، وخلف الأحمر يأتيان بشارا فيسلمان عليه بغاية الإعظام ، ثم ينشدهما ، فيكتبان عنه إلى أن أتياه يوما فقالا له ما هذه القصيدة التي أحدثتها في ابن قتيبة ؟

فأنشدهما إياها فقال خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكان (إن ذاك النجاح) بكرا فالنجاح كان أحسن فقال بشار إنما بنيتها أعرابية وحشية فقلت : إن ذاك النجاح كما يقول الأعراب البدويون وإن قلت بكرا فالنجاح كان هذا من كلام المولدين ولا يدخل في معنى القصيدة قال : فقام خلف فقبّل بين عينيه فهل كان ما جرى بين خلف وبشار بحضور أبي عمرو بن العلاء إلا للطف ذلك المعنى ، ودقته ، وخفائه ؟

إن صورة الأمر في صدر البيت «بكرا» قد لفتت ذهن السامع في قوة إلى أن يبحث عن السبب في علة هذا الأمر ، وعن الدافع إليه ، فكأن الأمر بمثابة المثير الذي يحرك النفس من داخلها لتبحث عن سببه وعلته فيكون الرد عن هذا الاستفسار مشتملا على التأكيد الذي يريك الكلام مقطوعا موصولا معًا ، مستأنفا غير مستأنف .

إن الشاعر حين قال في صدر البيت «بَكِّرا» أدرك أن المتلقي صَارَ بحاجة إلى أن يفهم علة الأمر في صورة مقبولة لا تردّد فيها فأكد له الخبر ، ولو أنه لم يؤكده وأتى بالفاء مكان (إنّ) لذهبت ميْزة الكلام من أنه مستأنف غير مستأنف ، مقطوع موصول معًا ولصار مرسلا مطلقًا لم يلب حاجة النفس المتشوقة لأن

تعرف علة الأمر في صورة مقررة مؤكدة ، وهكذا ترى الشيء وقد نُزّلَ منزلة غيره وهنا نزل خالي الذهن منزلة المتردد وهذا التنزيل إنما يكون حينما تحمل الجملة الأولى إيماءات أو تلميحات أو إشارات فيها معنى الاستفسار والسؤال فتأتي الجملة الثانية لتكون بمنزلة الإجابة عن هذا الاستفسار .

إن تنزيل خالي الذهن منزلة المتردد إنما يكثر في كتاب الله القرآن الكريم وتراه يقع من خلال جملتين تكون الجملة الثانية بمثابة الإجابة عن سؤال تولد من الجملة الأولى مما هو معروف باسم شبه كمال الانفصال ، ومن أمثلته قوله تعالى في أول سورة الحج : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴾ (الحج:١) .

وكما ينزل خالي الذهن منزلة المتردد فإنّ غير المنكر ينزل منزلة المنكر وذلك حين يظهر عليه شيء من أمارات الإنكار ، وذلك كقول الشاعر :

جَاءَ شَقِيقٌ عَارِضًا رُمْحه إنّ بَنِي عَمّكَ فِيهم رِمَاحُ

فنحن أمام رجل لا ينكر أنّ في بني عمه رماحا ، فهو أدرى بهم وأعلم ، إذ إنّ مجاورته لهم تجعله في مكان من لا يخفى عليه هذا ولكن صورته التي جاء عليها مدلاً بنفسه وقد وضع رمحه عرضا بلا التفات ، ومن غير تهيؤ ولا استعداد جعلته وكأنه في مقام من يعتقد أنه ليس هناك أحد من بني عمه يمكن أن يقوم إليه بسيفه لينازله وكأنهم عُزّل بلا سلاح ، إنه هنا بمنزلة المنكر الذي ينكر أن في بني عمه رماحًا تطوله ، وتردّ اعتداءه ، لذا خُوطب خطاب المنكر فأكد له الكلام وجوبا إخراجا للكلام على غير مقتضى الظاهر .

ومن صور إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر تنزيل المخاطب العالم بالفائدة ولازم فائدتها منزلة الجاهل الذي لا يعلم فيلقى إليه الخبر كما يلقى إلى الجاهل ، ويخاطب خطابه تماما بتمام زراية ونكاية فمن يعلم ولا يعمل بعلمه يكن علمه كأنه غير شيء ، ذلك أن من أوجب الواجبات حين

تعلم أن تعمل بمقتضى هذا العلم ، ولذا فمن يعلم ولا يعمل بعلمه ينزل منزلة الجاهل إذ لا قيمة لعلمه إن التارك للصلاة المهمل لأدائها لا يجهل أنها واجبة ولكن إهماله في القيام بها وتركه لها ، وعدم أدائه إياها جعلت علمه كلا علم فخوطب على هذا الأساس وقيل له الصلاة واجبة وانظر إلى ما نزل هذا التنزيل من قول الفرزدق لهشام بن عبد الملك حين تجاهل عليا بن الحسين رضي الله عنهما .

هَذَا ابنُ خَيْرِ عِبادِ اللهِ كُلِّهِمُ ... هذا التَّقِيُّ النَّقِي الطَّاهِرِ الْعَلَمُ

هذا ابنُ فاطمةَ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَهُ ... بِجَدِّه أَنْبِيَاءُ اللهِ قَدْ خُتِمُوا

إنّ عليًّ بن الحسين أشهر من أن يجهله هشام بن عبد الملك ولكن الغيرة التي أكلت قلبه حين رأى الناس يحتفون به ويحتفلون ، ويحيطونه بهالات من الإجلال والإكبار ، ويتهيبونه ، كل هذا جعله يتساءل من هذا ؟ ومن ثمَّ نزل منزلة الجاهل وخوطب على هذا النحو خروجا بالكلام على خلاف مقتضى الظاهر .

وقد ينزل المنكر منزلة غير المنكر لعدم الاعتداد بإنكاره : إذ يوجد بين يديه من الأدلة الواضحة ، والدلائل الشاهدة ما لو نظر فيها وتأمل لارتدع عن إنكاره ولعاد إلى رشده وصوابه . انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ (البقرة:١٦٣) . هكذا من غير تأكيد إن ظاهر حال المخاطب كان يدعو إلى تأكيد الكلام إذ إنه منكر والمنكر يؤكد له ولكن القول الكريم تجاوز هذا الظاهر من الحال إلى خلاف مقتضاه لأن هذا المنكر يمتلك من الأدلة البليغة ، والدلائل الواضحة ما لو نظر وتأمل لرجع إلى صوابه ، وعاد إلى رشده ، فكأنّ إنكاره في مثل هذا كلا إنكار فلا يؤبه به ولا يوضع في حساب أو في ميزان ، ومن ثمَّ خوطب خطاب غير المنكر بعد أن نزل منزلته .

ملاحظة حال المتكلم

يلاحظ مما سبق من التأكيد وعدمه أنهما إنما يجريان على حسب حال المخاطب سواء كان تحقيقيا أي مراعاة ظاهر الحال ، أو تنزيليا أي خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر لكن هناك من الأحوال ما يكون الداعي فيها إلى التأكيد أو عدمه هو حال المتكلم نفسه ، انظر إلى عمرو بن كلثوم في معلقته الذائعة وهو يقول :

أَبَا هِنْدٍ فَلا تَعْجَلْ عَلَيْنَا ... وَأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ اليَقِينَا
بِأَنَّا نُورِدُ الرَّايَاتِ بِيضًا ... ونُصْدِرُهُنَّ حُمْرًا قَدْ رُوِينَا

إنه يخاطب الملك عمرو ابن هند بأن يدخر تهديده ، وأن يؤخر وعيده حتى يعلم من أولئك الذين يتهددهم ، أو يتوعدهم .

وفي البيت الثاني ترى الشاعر يفتخر بقبيلته ويعلن على الملأ شجاعتها وقوتها من خلال هدير آلة الحرب ، وقعقعة أسلحتها ، حتى إن جيشها المكتسح المدمر ليورد راياته الطعن وهن بيض ، ثم يرجعها وهي تجري بالدم الذي نهلته من مناهل الأعداء بعد أن تفجرت بحورا وأنت ترى في قوله : «بأنا نورد الرايات بيضا» تأكيدًا وليس مما يقبل في مقام الفخر أن يكون قد جاء به ليؤكد خبره عند المخاطب ، لأن في ذلك إضعافا للمعنى ينأى به الحال ويرفضه الموقف ، فقوة القبيلة المتفوقة ، وشجاعتها الذائعة الغالبة ليست محلا لظن أو خلاف ، إنها حقيقة فرضت نفسها كغيرها من الحقائق التي لا يثور حولها جدل ، أو تتوجه إليها تهمة الشاعر المفتخر هنا لا يرى أن يؤكد شيئا لمن يلقي خبره إليه ، ولكنه يصور شعوره ، وينظم إحساسه ، وهو قد أحس

هذا في نفسه قويا مؤكدا مقررا ، فصوره على نحو ما أحسَّ به وتأكد لديه ، ومثله في القصيدة نفسها قوله :

فَإِنَّ قَنَاتَنَا ـ يا عمرو ـ أَعْيَتْ عَلَى الأَعْدَاءِ قبلك أَنْ تَلِينَا

وتصوير المتكلم حال نفسه هو ما عناه عبد القاهر بقوله في دلائل الإعجاز في إن « إنها قد تدخل للدَّلالة على أنَّ الظنَّ كان منك في الذي كان أنه لا يكون ... كقولك إنه كان مني إلى فلان إحسان ومعروف ثم إنه جعلَ جزائي ما رأيت فتجعلُك كأنك تردُّ على نفسك ظنَّك الذي ظننت ... » إلخ .[1] .

وإذا كان المتكلم يصور حال نفسه فيؤكد كلامه لينقل شعوره ، والحقيقة من خلال إحساسه هو فإنه قد يترك تأكيد الأمر الذي يحتاج إلى تأكيد والعلة في ذلك ترجع إليه هو إلى ذاته إلى نفسه التي لا تساعده على تأكيد ما هو منكر ؛ لأنه غير معتقد له ومن ثمَّ فإنه لا يصدق مع نفسه لو أكده ، فيرفض تأكيده ولا يتقبله ، كما أنه يؤكد الحكم المُسَلَّم به لصدق الرغبة فيه ولإحساسه هو به على قدر من التقرير والتأكيد ، انظر إلى ما يفهم من كلام الزمخشري في بعض ما يقول في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ (البقرة:١٤) فأنت تراهم قد خاطبوا المؤمنين ساعة لقائهم بهم من غير تأكيد ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا ﴾ هكذا مرسلة من غير تأكيد فلم يقولوا إنا آمنا لماذا ؟ لأنهم يصورون إحساسهم ، وما يشعرون به وهو شعور وإحساس ليسا في حاجة إلى تأكيد لذا جاء كلامهم في صورته التي هو عليها خاليا من التأكيد كما تراهم أكدوا كلامهم مع إخوانهم من الشياطين في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ هكذا بالتأكيد لماذا ؟ لأنهم صادقون مع إحساسهم وهذا الصدق مقرر مؤكد في باطن النفس وداخلها فأرادوا أن ينقلوا هذه الحقيقة على قدر ما أحسُّوا بها مؤكدة ثابتة فضلا على أن هذا رائج عنهم ، ومتقبل منهم .

---

(١) دلائل الإعجاز صـ ٢١٤ طبعة المنار .

وقد يكون الباعث على التأكيد الرد على غير المخاطب كما في قوله تعالى في خطاب نبيه ردا على كذب المنافقين في شهادتهم ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ (المنافقون:١).

كما يكون داعي التأكيد اهتمام المتكلم بالخبر وهو يريد أن يشعر المتكلم بهذا الاهتمام كقوله ﷺ «ألا أدلكم بأكبر الكبائر ... ألا وقول الزور ، وشهادة الزور ، وشهادة الزور» مكررة مؤكدة حتى لقد تمنى أصحابه سكوته .

أغراض الخبر

إن قصْد المخبر بخبره لا يخرج عن أمرين : إما إفادته الحكم الذي تضمنه الخبر ويسمى ذلك فائدة الخبر أو إفادة المخاطب أن المتكلم عالم بالحكم ويسمى لازم الفائدة .

فالغرض الأول هنا وهو فائدة الخبر معناه أن المخاطب يجهل شيئا وأنت تريد أن تعلمه إياه ، وتعرفه به لمن لم يكن يعلم أو يعرف نجاح **محمد** فتخبره بنجاحه وتقول له نجح **محمد** فأنت هنا أفدته فائدة لم يكن يعلمها .

أما لازم الفائدة كأن تخاطب مخاطبك فتقول له لك أخ يسمى محمداً فأنت هنا لم تفده فائدة يجهلها إذ إنه لا يجهل أنّ له أخًا يسمى محمداً ولكنك أعلمته لازم هذه الفائدة وهو أنك تعلم أن له أخا يسمى بهذا الاسم .

وقد يخرج الخبر عن هذين الغرضين إلى أغراض أخرى تفهم من سياق الكلام وتعين عليها القرائن منها .

إظهارُ الضعف مثل قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام ﴿ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ (مريم:٤) فهو لم يرد أن يخبر الله ـ عز وجل ـ

لأن الله يعلم كل شيء ولكنه يريد أن يظهر ضعفه وإذا كان العظم وهو أصلب شيء في جسده قد وهن وضعف فكيف بغيره .

ومن هذه الأغراض التي يخرج إليها الخبر الاسترحام كقول الشاعر :

إِلَهِي عَبْدُكَ الْعَاصِي أَتَاكَا ... مُقِرًّا بالذنوبِ وَقَدْ دَعَاكَا

فهو لم يرد أن يخبر الله أنه قد أتى إليه تائبا ؛ فإن الله ـ تعالى ـ لا يخفى عليه شيء وإنما هو يستعطف ويسترحم .

ومن هذه الأغراض إظهار الفخر والتعالي ، كقول الشاعر :

سوايَ يهابُ الموتَ أو يرهَبُ الرَّدَى ... وَغيري يَهْوَى أَنْ يَعِيْشَ مُخَلَّدَا

فنحن أمام شاعر سواه يهاب الموت ويهرب من الردى ، أما هو فلا ، وغيره يهوى أن يعيش مخلدا أما هو فإنه يخوض المعامع ويقتحم الأهوال لا يهمه أن يعيش مخلدا في حياة أية حياة ولكن إما أن يعيش عزيزا أو يموت حرا كريما تحت ضرب السيوف ، وخفق البنود والرايات .

ومن هذه الأغراض إظهار التفجع كقول الشاعر :

قَومِي هُمُ قَتلوا أُمَيْمَ اخي ... فَإِذا رَمَيْتُ يُصِيْبني سَهْمِي

إلى خلاف ذلك من الأغراض التي لم يقصد بها إفادة الحكم أو لازم الفائدة ، وإنما خرج الخبر عن هذين إلى معان أخرى تفهم بمعونة القرائن وتبصرة السياق .

* * *

الإسناد الخبري

الإسناد الخبري هو ضم كلمة أو ما يقوم مقامها إلى أخرى أو ما يقوم مقامها على وجه يفيد أن مفهوم إحداهما ثابت لمفهوم الأخرى أو منفي عنه .

ففي قولك : (محمد صادق) إسنادٌ خبري إذ قد ضم فيه كلمة صادق إلى محمد على وجه يفيد أن مفهوم إحداهما « صادق» ثابت لمفهوم الأخرى « محمد» .

وفي قولك : محمد غير كاذب إسناد خبري كذلك إذ فيه قد نفى مفهوم كلمة « كاذب» عن محمد .

وضم كلمة إلى ما يقوم مقامها لا إله إلا الله منجية وضم ما يقوم مقام الكلمة إلى الكلمة كقولك كلمة الإخلاص تأخذ بيد قائلها إلى الجنة .

وضم ما يقوم مقام الكلمة إلى ما يقوم مقام الكلمة : مثل لا إله إلا الله تنجي قائلها يوم الهول الأكبر .

للإسناد الخبري بهذا الاعتبار أحوال أربعة : التوكيد وعدم التوكيد والحقيقة العقلية ، والمجاز العقلي .

الحقيقة العقلية

هي إسناد الفعل أو ما في معناه إلى شيء ، بُني الفعل أو ما في معناه له عند المتكلم في ظاهر حاله

والمراد **بالفعل** : ما دل على حدث وقع في زمن وهو المعنى الاصطلاحي له عند النحويين والمراد **بمعنى الفعل** : ما يدل على جزء من معنى الفعل

وهو «الحدث» كالمصدر ، واسم الفاعل ، واسم المفعول وسائر المشتقات والمراد بالشيء : خصوص الفاعل فيما بنى للفاعل ، ونائب الفاعل فيما بنى لنائب الفاعل عند الخطيب .

ومعنى **بناء الفعل وما في معناه إلى ذلك الشيء** : أن معناه قائم به ، ووصف له ، وحقه أن يسند إليه سواء صدر عنه باختياره كأحسن وأساء أو بغير اختياره كمرض وشفي وقوله **عند المتكلم** : أي في رأيه واعتقاده وبهذا القيد دخل في التعريف ما طابق الاعتقاد سواء طابق الواقع أو لم يطابقه .

وقوله **في ظاهر حاله** : بأن لا ينصب قرينة على أن ذلك الفعل أو ما في معناه لغير ذلك الشيء في اعتقاده ، وبهذا القيد دخل في تعريف الحقيقة ما لا يطابق الاعتقاد سواء طابق الواقع أم لا ، وبذلك يتناول التعريف أقساما أربعة :

الأول : ما طابق الواقع والاعتقاد : كقول المؤمن أنبت الله الزرع ، وشفى الله المريض ، فإن إنبات الله للزرع ، وشفاء الله للمريض في الواقع هو لله ـ سبحانه وتعالى ـ والأمر على ذلك في اعتقاد المؤمن ويشترط لذلك أن يكون المخاطب على علم أن الذي ينشئ هذا الكلام مؤمن موحّد يثبت الأفعال كلها فعلا لله سبحانه وتعالى أو أن يجهل حاله إذ المفهوم من ظاهر حاله أن المتكلم مؤمن يسند الأفعال جميعها لله سبحانه وتعالى .

الثاني : ما طابق الاعتقاد فقط كقول الكافر أنبت الربيع النبات وشفى الطبيب المريض فإن نسبة إنبات النبات للربيع وشفاء الطبيب للمريض هي كذلك في اعتقاد المتكلم وإنما يعد ذلك حقيقة عقلية إذا كان المخاطب يعلم أن المتكلم كافر ينسب الأفعال لغير الله أو كان يجهل حاله إذ المفهوم من ظاهر حال المتكلم أن الإسناد إلى ما هو له .

الثالث : ما طابق الواقع فقط كقول الكافر : «أنبت الله الزرع» فإنه يلاحظ في هذا الإسناد أنه قد طابق الواقع إذ إن المنبت للزرع هو الله ولكن هل هذا

ما يعتقده المتكلم حقيقة ؟ الواقع على خلاف ذلك لأن المتكلم ينسب خلق الأشياء إلى غير الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحتى يكون ذلك حقيقة عقلية لابد أن يخفى المتكلم حقيقة أمره فلا يظهرها ذلك أن المفهوم من ظاهر حاله حينئذ أن الإسناد إلى ما هو له .

الرابع : ما لم يطابق واحدا منهما لا الواقع ولا الاعتقاد كالأقوال التي يكون المتكلم عالما بكذبها كأن تقول لآخر قابلني أخوك أمس وأنت تعلم أكيدا أنه لم يقابله فمثل هذا التركيب على هذه الصورة التي أبْصرتها عليه من قبيل الحقيقة العقلية مع أنه لم يطابق الواقع ولم يطابق الاعتقاد كذلك لأن الفعل فيه أسند إلى ما هو له فيما يظهر من حال المتكلم ولا ينافى ذلك كذبه إذا الكذب لا منافاة بينه وبين الحقيقة بالمعنى المذكور .

ملابسات الفعل «المجاز العقلي»

والمراد بالملابس : العلاقة بين الفعل ، وفاعله ، ومفعوله ، ومصدره ، وزمنه ، ومكانه ، وسببه وللفعل ملابسات كثيرة إذ إنه يلابس الفاعل ، والمفعول به ، والمصدر ، والزمان والمكان ، والسبب .

وملابسته للفاعل من جهة قيامه به ، أو صدوره منه ، وملابسته للمفعول من جهة وقوعه عليه ، وملابسته للمصدر لكونه جزء مفهومه ، وملابسته للزمان لأنه جزء مفهومه إذ الفعل عبارة عن حدث يقع في زمن ، وملابسته للمكان لأنه يقع فيه ، وملابسته للسبب لأنه علة وقوعه والسبب في هذا الوقوع وليس مما يخفى أن المراد بالمصدر ، والزمان ، والمكان والسبب بالنسبة للفعل .

على أنه مما يجب ألا يغيب أن المراد بالفاعل الفاعل في الحال أو في الأصل كالتمييز المحول عن الفاعل وأن المراد بالمفعول ما من شأنه أن يكون

مفعولا بلا واسطة كالمفعول للفعل المتعدي أو ما يكون مفعولا بواسطة حرف الجار كالمفعول للفعل القاصر والمراد بالسبب السبب الآمر أو المؤثر أو الباعث .

وإذا عرفت هذا فما هو الإسناد ؟ ومتى يكون حقيقة ؟ ومتى يكون مجازًا ؟ أما الإسناد فهو كما سبق ضم كلمة أو ما يقوم مقامها إلى أخرى أو ما يقوم مقامها على وجه يفيد أن مفهوم إحداهما ثابت لمفهوم الأخرى أو منفي عنها ويكون الإسناد حقيقة على نحو ما سبق إذا أسند الفعل أو ما في معناه (كالمصدر واسم الفاعل ، واسم المفعول ، والصفة المشبهة) ، إلى شيء يكون الفعل أو معناه له عند المتكلم في ظاهر حاله .

ويكون مجازيا : إذا أسند الفعل أو ما في معناه إلى شيء غير ما بنى الفعل أو ما في معناه له لملابسته مع قرينة مانعة من إرادة ظاهر الإسناد .

وإذا كنت قد عرفت المراد بالملابسة وهي هنا في الإسناد المجازي العلاقة التي بين الفعل أو ما في معناه ، وبين المسند إليه المجازى لتتضح جهة التجوز فإن هذا الإسناد يكون بإسناد الفعل المصوغ للفاعل إلى المفعول أو بإسناد الفعل المبني للمفعول إلى الفاعل ، أو بإسناد الفعل إلى المصدر ، أو إلى ظرف الزمان ، أو المكان ، أو السبب .

فمما أسند الفعل المبني للفاعل إلى المفعول به(رضيت عيشة فلان) وأنت تنظر إلى الإسناد في هذا الشاهد فترى ما حقُّه أن يسند إلى الفاعل قد أسند إلى المفعول به لأن العيشة ليست راضية ، بل مرضية ولو حاولت أن تسند الفعل هنا إلى فاعله الحقيقي لقلت : رضي فلان عيشته ، ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ (الحاقة:٢١) أي عيشة راضٍ صاحبها عنها لأن العيشة لا ترضى وإنما يُرْضَى عنها فقد أسند اسم الفاعل من رضي «راضية» إلى ضمير «العيشة» إسنادًا مجازيًا .

ومن صور المجاز العقلي الذي علاقته المفعولية قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ (الطارق:٦)، ولو أنك نظرت إلى القول الكريم وأدرته في ذهنك لرأيت الماء ليس دافقا وإنما مدفوقا ولقد أسند اسم الفاعل « دافقا » إلى ضمير الماء من إسناد ما هو في معنى الفعل إلى غير ما حقه أن يسند إليه ، وانظر إلى قولهم : أسلوب حكيم هل هناك أسلوب يصح أن يوصف بأنه حكيم أم أن صاحبه ومنشئه هو الحكيم ؟

وكأن معنى هذا أسلوب حكيم صاحبه فيه وعلى هذا النحو قولك : عطاء كريم والعطاء لا يكون كريما وإنما الكريم صاحبه أي كريم صاحبه فيه ومثل هذا : ربحت تجارته والتجارة لا تربح وحقيقة الأمر ربح التاجر في تجارته وهكذا .

والعلاقة في كل هذا هي (المفعولية) أي مضاهاة المسند إليه المجازي للمسند إليه الحقيقي في ملابسة الفعل لأنه مفعوله .

إسناد الفعل المبني للمفعول إلى الفاعل :

ومما مثلوا له قولهم (سيل مُفْعَم) ومعناه أنه سيل يملأ المكان وهكذا يتحقق المجاز فالسيل ليس مملوءا ولكنه مالئا ومنه قولهم : أُفْعِمَ السيل وليس هناك من يُفْعِمُ السيل ولكن السيل هو الذي يُفعم أي يملأ وحقيقة الأمر أفعم السيل الوادي فالسيل هو الفاعل والإفعام واقع على الوادي فكان حق الفعل المبني للمفعول أن يسند إليه فيقال (أفعم الوادي) لكنه أسند إلى الفاعل (السيل) إسنادا مجازيا فصارت صورة الكلام أفعم السيلُ يرفع (السيل) على أنه نائب فاعل والذي سوغ ذلك ما بين الفعل والفاعل من الملابسة .

إسناد الفعل إلى المصدر :

ومما مثلوا له به قولهم « جن جنونه » ولو حاولت أن تتملى هذا المثال وتتأمله لعرفت أن الجنون صفة الشخص فهو الذي يَجبُ أن يسند إليه فيقال :

« جن الرجل جنونا » ولكن الفعل هنا أسند إلى المصدر تجوزا ومبالغة ومثله قول الشاعر :

تَكَادُ عَطَايَاه يُجَنُّ جُنُونُها　　　إِذَا لَمْ يُعَوِّذْهَا برُقيةِ طَالبِ

ومثله قولهم : « شعر شاعر » والتجوز قائم في إسناد اسم الفاعل (شاعر) إلى ضمير المصدر (شعر) فيكون من إسناد الفعل إلى مصدره كما أنه يمكن أن يكون المراد بشعر ما هو في مقابل النثر فيكون التجوز قائما في إسناد اسم الفاعل إلى ضمير المفعول من إسناد الفعل إلى زمنه .

كما في قولهم (صام نهارُه) والنهار لا يصوم وإنما يصوم الإنسان المكلف فيه فحقه أن يسند إليه فيقال صام الإنسان في نهاره ، وعليه فأنت تلاحظ التجوز في الإسناد (من خلال إسناد الفعل إلى زمانه والذي سوغ إسناد الفعل إليه ملابسته للصوم من حيث إنه ظرف زمان له وفي (نهاره صائم) التجوز قائم في إسناد اسم الفاعل (صائم) إلى ضمير الظرف إسنادا مجازيًا .

إسناد الفعل إلى مكانه :

وذلك مثل : (سار الطريق) والطريق لا يسير وإنما يسير الناس فيه فهو مكان للسير ، وليس فاعلا له ، والتجوز في إسناده إلى الطريق إسنادا مجازيا وسوغ إسناد الفعل إليه ملابسته للطريق من حيث وقوع السير عليه وعليه قول أبي الطيب :

وَكُلُّ امرِئٍ يُولِي الجَمِيلَ مُحَبَّبٌ　　　وَكُلُّ مَكَانٍ يُنْبِتُ العِزَّ طَيِّبُ

فأنت ترى أنه قد أسند الفعل (ينبت) إلى ضمير المكان إسنادا مجازيا من إسناد الفعل إلى سببه .

ومما مثلوا له قولهم : «بنى هامان الصرح» والبناء صفة الباني وهامان لم يبن ولكنه سبب آمر والبناة هم العمال وحقيقة المجاز : بنى العمال الصرح بأمر هامان والتجوز في الإسناد هنا قائم من خلال إسناد الفعل «بنى» إلى

سببه وهو «هامان» ومثله قوله تعالى : ﴿ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا ﴾ (غافر:٣٦) والتجوز في إسناد الفعل إلى ضمير هامان على اعتبار أنه سبب آمر وسوغ الإسناد هنا ما بين السبب والمسبب من الملابسة .

ومن الإسناد المجازي إلى السبب قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة:٨) أي لا يحملنكم البغض على عدم العدل وحقيقته ولا تجرمنكم أنفسكم بسبب شنآنكم لقوم على ألا تعدلوا» .

كيف يتحقق وجود المجاز العقلي مع النفي ؟

أنت تقف أمام قول الشاعر :

كُلَّمَا أَنبتَ الزّمانُ قناةً   رَكَّبَ المرءُ في القَناةِ سِنَانَا

فترى أن في قوله : «أنبت الزمان» إسنادًا مجازيا وأن الأمر فيه أنه قد جرى على غير ما هو له فهو إذا من المجاز العقلي إذ إن الزمان ليس الفاعل الحقيقي للإنبات لكنه زمن لوقوعه فيه ، فالفعل قد تجاوز فاعله الحقيقي إلى زمانه فجعله وكأنه القائم بالفعل المنشئ له ، وفي هذا من المبالغة في كثرة الفعل وطغيانه ما فيه .

إننا هنا أمام شاعر تفهق جراحه بالدم ، وتنضح بالمرارة والألم ، فيشكو غدر الزمان وأهله ، فلئن كان من طبيعة الزمان أن يسيئ وألا يحسن فإن أهل الزمان يمدونه بما من شأنه أن تمتد جذوة الإساءة ، وأن تشتعل حتى لا تنطفئ وتأمل : (كلّما) وما تفيده من التكرار والاستمرار ، وكيف ربطت بين عداوة الزمان وعداوة أهله حين ربطت بين الشرط والجزاء وهكذا ترى المجاز العقلي يطل عليك من خلال هذا الإسناد المثبت في قوله : «أنبت الزمان» فماذا لو قلت في غير الشعر : «وما أنبت الزمان» وحتى ندني هذا الموضوع من

مداركك خذ المثال الشائع عند القوم في هذا الباب من مثل قولهم : « صام نهار فلان » واضح أنه من باب المجاز العقلي ؛ لأن فيه إسنادا قد تمّ ولم يكن الفاعل فيه هو المنشئ للفعل في حقيقة الأمر ذلك أن النهار لا يصوم وإنما يصوم العابد ، والنهار زمن لوقوع الصوم فيه فإذا تجاوزت الإثبات وأتيت بنقيضه وهو النفي ، وقلت ما صام نهار فلان فهل يعتبر هذا من المجاز في الإسناد الذي أثبت فيه الفعل لغير فاعله الحقيقي ؟ وهكذا في سائر العلاقات السابقة .

إن من تمام آلة المنطق ألا تقول : « ما صام نهار فلان » إلا وقد ثبت لديك وتمكن عندك صحة ما يقابل هذا النفي وهو الإثبات فلا يمكن أن تقول بالنفي إلا وأنت تسوغ الإثبات في صام نهار العابد ؛ لأنك إنما تجري في النفي على الطريقة التي جريت عليها في الإثبات .

على أننا نرى السعد قد تعرّض لهذه المسألة صراحة وأجاب على ما يمكن أن يثار حولها من اعتراض وحاصل الإجابة أن معنى أن الإسناد في النفي في مثل قول الشاعر :

لقد لُمْتِنَا يا أمَّ غيلانَ في السُّرَى وَنِمْتَ وما ليلُ الْمَطِيِّ بنائم

إسناد إلى غير ما هو له أنه لو اعتبر الكلام مجرّدا عن النفي ، وأُدّي بصورة الإثبات لكان إسنادا إلى غير ما هو له ؛ لأن النفي فرع الإثبات إننا حين ندير الكلام في وعينا فنرى صورته في قول الشاعر : « ما ليل المطي بنائم » وقد أتى فيها إسناد اسم الفاعل « نائم » إلى ضمير الظرف « ليل » منفيا فلا نقل : أما وقد جاء الإسناد غير مثبت فلا يعتبر إسنادا إلى غير ما هو له لما سبق ولشيء آخر أننا ننظر إلى حاصل النفي لا إلى نفس النفي فحاصل « وما ليل المطي بنائم » .

« ليل المطي ساهر » ومعروف أن التجوز في إسناد اسم الفاعل « ساهر » إلى ضمير الظرف « ليل » أشهر من أن يدل عليه ببيان .

ولعل ما أورده الكشاف عند الحديث عن معنى قوله تعالى : ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ ﴾ (البقرة:١٦) ما يقوي هذا الفهم إذ إنه نظر إلى الحاصل بالنفي ؛ لا إلى النفي ذاته ويظهر لي هذا فيما وجهه من عتراض ، وبما أجاب عليه به ؛ إذ قال : «فإن قلت : كيف أسند الخسران إلى التجارة وهو لأصحابها قلتُ : هو من الإسناد المجازي ، وهو أن يسند الفعل إلى شيء ، يتلبس بالذي هو في الحقيقة له كما تلبست التجارة بالمشترين» .

هذا ولا مانع من أن يقع المجاز العقلي في الأساليب الإنشائية إذ إنها متفرعة على الأسانيد الخبرية وتستطيع أنت بشيء يسير من المحاولة أن تُكَوِّنَ من الأسانيد الخبرية التي جاء الإسناد فيها على غير ما هو له أسانيد إنشائية خذ هذا المثال الذي سبق في مكان آخر من هذا المبحث مما أسند فيه الفعل المبني للفاعل إلى المفعول به وهو قولهم : (رضيت عيشته) وقد عرفت أن المجاز قد جاء من طريق الإسناد وحين تدير هذا المثال وما هو على شاكلته في ذهنك تجد أنّ «العيشة» لا يمكن أن يصدر عنها رضا إذ إنها صفة الشخص الراضي ، فكان حقها أن يقع عليها الرضا لا أن يقع منها ولكن الخيال المحلق يلوِّن الأشياء بغير ألوانها ، ويصبغها بصبغته ، فيزيد من مساحتها ، ويضاعف من عطائها ، حين تطل عليك من خلال تلك الأجواء .

وتأمل هذه الجملة التقريرية لحقيقة فرعون : والتي تصور بغْيه ، وتطاوله ؛ وامتداده الذي أعطاه لنفسه ، وكيف مزّق الشعب شيعا حتى تنشغل كل شيعة بنفسها ، وبشأن من شئونها حين صرّح القرآن قائلاً : ﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ (القصص:٤) وتأمل قوله تعالى : ﴿ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ ﴾ والتي جاءت مفصولة عما قبلها ؛ لأنها بمنزلة الاستئناف البياني ؛ إذ هي إجابة عن سؤال مقدر في النفس نشأ من الجملة السابقة ؛وكأن سائلا طرح سؤالا ، وماذا بعد ذلك ؟ فكان الجواب يستضعف طائفة منهم

وفصل «يذبح أبناءهم» عما سبقها لأنها بمثابة البدل والبدل والمبدل منه شيء واحد .

إن الله يحدثنا عما صنعه فرعون ببني إسرائيل فقال : «يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم» وأنت ترى أنّ الفعل في كلٍّ من الجملتين قد أسند لغير فاعله الحقيقي ؛ لأن فرعون لم يكن يذبح بنفسه ، ولا يستحيي بنفسه وإنما الذي يباشر الفعل هم جنوده ، لكن لما كان هؤلاء الجنود أدوات تأتمر بأمر فرعون والأداة لا تعمل من غير توجيه صار كأنه الفاعل الحقيقي المباشر للذبح والاستحياء ، وسوّغ هذا الإسناد أن فرعون سببٌ آمر وأن الإسناد من قبيل المجاز الذي علاقته السببية .

وفي نفس السورة سورة القصص تطالع قوله تعالى : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (القصص:٣٨) وترى مزيدا من الاستعلاء بالباطل ، والغرور الرخيص مما تراه كامنًا داخل نسيج التراكيب ، وأنت تلاحظ أن الأمر في قوله تعالى : «أوقد» ، «واجعل» قد أسند كل منهما إلى ضمير هامان ، وليس هامان ممن يبني ويباشر البناء بذاته ، وإنما يبني العمال والبناءون ، ولكن توجيه الأمر إلى العمال والبنائين إنما يكون منه ؛ فهو السبب الآمر ، وليس مما يخفى أو يغيب أن هذا الإسناد قائمُ في أسلوب إنشائي ، وأنه تاليا للتطاول الأحمق المستفز في قول فرعون : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ إذ تراه وقد نادى الملأ بأعلى صوت ، ونفى عن نفسه أي علم يتصل بإله لهم إلا أن يكون هو هذا الإله : ثم تأمل نبرة لاستخفاف والهزء في هذا الأمر ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا ﴾ .

ثم انظر إلى تلك المداورة والمناورة التي يظهر من خلالها وكأنه يبحث عن الحقيقة ، وعن معرفة إله موسى فيتبع أمره إلى هامان بأن يجعل له صرحا

لكي يطلع إلى إله موسى ، وكأنه يبحث عنه ويفتش وفي لهجة مستهزئة ، ونبرة مستخفة يقول : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ (المزمل:١٤-١٧) لتراه وهو يهز النفوس هزًا عنيفًا ليوقظها من نوم ، ويحركها من رقدة وسكون ويضعها أمام مشهد من مشاهد القيامة ، فبعد أن يُبصر الأرض وهي ترجف وتضطرب ، والجبال الجلاميد الصم الشواهق وقد أفقدها هول الموقف ما بين ذراتها من تماسك فإذا بها تتفتت ، وتتلاشى وتنهال في فضاء الأرض الواسع العريض ، ويا لها من حركة عنيفة ، ورجفة مدمرة تتصدع من هولها الأرض ، وتصير معها الجبال كثبانا من الرمال الهشة التي تفنى وتتطاير في عرض الأثير لتبصر كيف يضعك أمام مشهد آخر من مشاهد هذا اليوم حيث ترى الأطفال وقد شابت ذوائبها ، وابيضّتْ شعورها من هول ما يقع فيه من كرب ، إن هذا اليوم الذي ترجف فيه الأرض والجبال هو هو اليوم الذي يجعل الولدان شيبا .

وانظر إلى الإسناد الذي تم بين الفعل « يجعل » وبين ضمير اليوم واليوم لا يجعل وإنما يجعل الله فيه فالله ـ عز وجل ـ هو الفاعل الحقيقي واليوم زمان لهذا الفعل والذي أجاز هذا الإسناد وسوَّغه ما بين الفاعل الحقيقي « الله » والفاعل المجازي « ضمير اليوم » من مشابهة في تعلق الفعل بكل منهما فتعلقه بالفاعل الحقيقي من حيث إنه الموجد له والمنشئ ، وتعلقه بالفاعل المجازي من حيث كونه جزء مفهومه فالعلاقة هي الزمانية .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ (الزلزلة:١-٥) .

وما أظن من يقرأ هذه الآيات أو يستمع إلى من يرتلها إلا وينظر تحت قدميه وفي مظاهر الكون من حوله ؛ إذ يخيَّل إليه أن كل شيء قد اختل ميزانه واهتز ، وتأرجح ، واضطرب ، فصار يميل كما أنه يميل ، ويهم بالوقوع ثم ينهض ويعتدل ، ويحاول أن يتماسك ، لقد أصاب هذا الزلزال القلوب فزلزلها عن أماكنها ، وهزّها من أعماقها ، وكاد أن يرمي بها خارج الأجسام ومع زلزلة القلوب ، وهزة النفوس ، تتمايل الأجساد وتختل وتترنح لقد اضطرب كل شيء ثابت وتحرك كل شيء ساكن حين تزلزلت الأرض فزلزلت كل ما عليها .

وانظر إلى الإضافة الواصفة في قوله «زلزالها» وما يمكن أن تضيفه هنا من أنه الزلزال المقدَّر لها ، اللائق بها ، الخاص بظرفها المدَّخَر ليومها وإذا كانت الرّعشة الهزيلة الضعيفة التي تمثل زلزال الدنيا مما تقع للناس في حياتهم ، ويبصرونه ويشاهدونه في وجودهم تصيبهم بالهول تنخلع له الأفئدة ، وبالذعر تنفطر له القلوب ، فإن زلزال اليوم الآخر ليس كزلازل الدنيا ، زلزال من نوع آخر لم يألفه الإنسان ، ولم يعهده ، ولم يره ، وتأمل الأرض وهي في هذا اليوم ترمي بأحمالها ، وتخرج ما في بطنها من دفائن وكنوز ، وتلفظه فوق سطحها لتتخفف مما يرهقها ، ويضنيها ، إن التعبير بالأثقال وإضافتها إلى الأرض يشعرك بأنها أثقال ثقيلة ، وأنها أحمال مرهقة ، وأن الأرض كان يئودها حملُها ، وأن الأرض ما كاد يوحي لها حتى لفظتها ، وتخلصت من عبئها وياله من تاريخ بعيد ضارب في أعماق البعد منذ أن كانت الأرض ، وكانت الحياة من فوقها وهي تبْتلع الأموات كل يوم ، وتطويهم في بطنها . تُرى كم تزن تلك الأحمال ؟ ما كمُّها؟ فإذا أضيف إلى ذلك ما بداخلها من كنوز ، ومعادن فإلى أي مدى يكون الحمل ثقيلا والعبء ، فادحا مضنيا ؟

إن المجال هنا للتصور المحدود أما إدراك الحقيقة فشيء مذهل شيء يفوق العقل ، والتصوّر ، والخيال كل أولئك جميعا ، ولا يصعب عليك أن تعرف أن

إسناد الإخراج هنا للأرض إسناد مجازي ؛ لأن المخرج هو الله وإسناد الإخراج للأرض على هذا النحو إسناد مجازي ، والعلاقة المكانية .

وحين تقرأ قول الله في سورة الإسراء ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ (الإسراء:٤٥) فإنك تشعر وكأنك تطوي الأحقاب والقرون كما تُطوى السهول والفجاج لتنتقل إلى حيث يرتل القرآن من فم الرسول ﷺ ولينسكب نقيا في مسامع هؤلاء المعاندين المغرورين بشهوة الباطل ، وهم يغالبون هذا الهوى الذي تتجه فطرهم عند تلقيه إليه فيجذبونها بعيدًا عنه ، ويقاومون انجذابهم القلبي ، ويشدونه إلى بعيد ، ويمنعونه من أن يشق طريقا عميقا من الإيمان في أفئدتهم وصدورهم وهكذا يمنعون تأثرهم بأيديهم ، فإذا بالله ـ سبحانه وتعالى ـ يقيم بينهم وبين الرسول ﷺ مصدر هذا النور حجابا من الهوى والغفلة لا تبصره العيون ، ولكن تشعر به القلوب يحول بينهم وبين الهداية فلا يهتدون ومرة أخرى حين تدير هذا النص في ذهنك تدرك أن الحجاب الذي يمنع الرؤية ، ويحول دونها هو الساتر الذي يحجب غيره لا المستور المحجوب بغيره ولقد أسند« مستورا» اسم مفعول وصف مشبه بالفعل إلى ضمير الحجاب من إسناد ما هو بمعنى الفعل إلى غير ما حقه أن يسند إليه لعلاقة الفاعلية :

وتقرأ قول الله تعالى :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾
(هود:٤٢،٤٣).

ونتوقف أمام الأبوة الحانية العطوف وصوتها يملأ الفضاء العريض مناديا البنوّة العاقة الجاحدة أن تفيء إلى أمر الله في وقت يعصف فيه الهلاك المدمر المبيد بمن يشاقق الله ولكن البنوة ترفض ولا تستجيب وانظر إلى هذا النداء

وكيف نادى نوح ولده فقال له : «يا بني» وهي كلمة رقيقة شفيفة فيها وَلَهٌ ، وفيها عطف ، وفيها حنان كلمة تشعرك حين تسمعها أن المنادي أب ، وأن المنادى ابن ، والأب لا يريد لابنه إلا كل ما فيه الخير ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا ﴾ فالخطر عاصف ، والهلاك واقع والموت محقق لم يعرض عليه قضية الإيمان ؛ لأنها قضيةٌ يطول الشرح فيها ، ولا وقت لها بين هـذا الماء المصبوب من السماء ، والمتفجر من الأرض ، ولَما ردّ الابـن الجـاحـد على أبيـه بقـولـه : ﴿ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ رد عليه بقوله : ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ ثم أنهى الموج الحوار الدائر بينهما وكان ولد نوح من المغرقين .

وفي قوله سبحانه وتعالى : ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ إسناد مجازي حيث أسند عاصم اسم فاعل إلى ضمير اسم المفعول أي لا معصوم اليوم إلا من رحم الله والعلاقة المفعولية .

هذه نماذج لتحليل صور من المجـاز العقلـي في القـرآن الكـريم لم نقطعهـا عن السياق العام التي وردت فيه ، وإنما حاولنا أن نضـعها في مكانهـا الصـحيح منه وأن نربطها بموضعها .

صور المجاز العقلي بين القرب والبعد

أنت تمر على مثل قولك : هزم خالد بن الوليد جموع الـروم ، وعلـى مثـل قولك أتى بي الشوق إلى رؤيتك ، وأقدمني بلدك حقٌ لي على فلان وغير ذلـك مما هو على مثال تلك الأمثلة التي إن تأمّلتها رأيت الإسناد المجازي فيها قريبا من مداركك ، لا يشق عليك فهمه ، ولا يستعصي عليك إدراكه ولا معرفته ؛ إذ إنك لو شئت أن ترد هذه الأساليب إلى حقيقتها لوجدت السبيل إلى ذلك سهلا ميسورا لا مشقة فيه ، ولا إرهاق .

وهذه وأمثالها ينظر إليها الإمام عبد القاهر الجرجاني من خلال نظرته الكبرى إلى النظم والذي يكون حسنا جميلا حيث تستثمر فيه طاقات اللغة المختلفة من لغوية ، وشعورية ، وصوتية ، ويستعان فيها بوسائلها المتعددة في عملية الإبداع الفني ، وتشكيل الصور البلاغية وعليه فإنه يحكم على مثل تلك الصور السابقة في المجاز العقلي بأنها من العامي القريب ، يعرفها العربي والقروي ، ويهتدي إليها الصغير والكبير ؛ إذ إنها لسعة شهرتها تجري مجرى الحقائق التي لا يشكل أمرها ، ولا يصعب فهمها .

والإمام عبد القاهر يرى أن مثل هذه الأساليب « كنز من كنوز البلاغة العالية ، ومادَّة الشاعر المفْلق ، والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان ، والاتساع في طرق البيان » [1] وإذا كان قول الرجل أتى بي الشوق إلى رؤيتك ، وأقدمني بلدك حقٌّ لي على إنسان يضعه عبد القاهر لقربه من الحقائق ، ودنوِّه من الفهم مع السّوقى الرخيص ، وينأى به عن أن يرتفع إلى مستوى الغالي الثمين فإنه ينظر إلى لون آخر من ألوان هذا الأسلوب ويرى أنه نوع من أنواع الفن القولي المتميز وأن مكانه يجب أن يكون في السماء مع الشمس والكواكب والنجوم ؛ إذ إنه صعب المرام ، بعيد المنال .

انظر إليه وهو يمضي في رفق باحثا عن المزية التي ارتفعت ببعض أنواع التراكيب في هذا الباب فتراه وهو يَسْبُرُ أغوارها ، ويغوص في أعماقها باحثا ، ومقلِّبًا ، ومتأملا ، ودارسًا للوشائج والعَلاَئق التي تجعل منها نمطا فريدا ومثالا عاليا لجمال الأداء ، وعمق اللغة التي يتبتّل في محرابها عشاقُ البيان المشرق النضير فيسوق إليك هذا الحديث من خلال تخيل المجاز العقلي في قول الشاعر :

تناسَ طِلاَبَ العامِرِيَّة إذْ نأَتْ ... بأسْجَحَ مِرْقال الضُّحَى قَلِق الضَّفْرِ

---

(١) دلائل الإعجاز صـ ١٩٤ ، ١٩٥ .

إذا مَـا أحَسَّـتْهُ الأفَـاعِي تَحيّـزَتْ شَوَاةُ الأفاعِي مِـنْ مُثلَّمَـةٍ سُـمر
تجُـوبُ لَـه الظلمـاءَ عَـينٌ كأنَّهـا زُجَاجَة شَرْبٍ غَيرُ مُـلأى وَلا صِـفر

مرقال الضحى : الذي يسرع وقت الحر **الضمفر** : ما تشد به البطن ـ **تحيزت** : انقبضت **شواة** : جلود **المثَلّمة** : ـ الأخفاف المتآكلة من السير **الشرب** : جماعة الشاربين **صفر** : خالية .

والشاعر يتحدث إلى نفسه فيقول : جاهد نفسك ، وانْسَ ليلى العامرية فقد شط بها المزار ، ونأت بها الديار ، وصارت بعيدة عنك ، واصْحَبْ جَمَلَك ، بماله من مشفر رقيق ، وبْطن ضامر ، وقدرة على السير والذي تتجمع الأفاعي هاربة من أخفافه القوية التي ثلّمتها الحجارة الصلبة حين تراه خوفًا منها .

والشاهد في قوله : « تجوب له الظلماء عين » إذ إنّ الشاعر يريد أن يقول إنّ هذا الجمل ليهتدي بنور عينه في الظلماء وهي كزجاجة لا هي ملأى ولا هي فارغة ولكنه أسند « الجوْب» وهو قطع الظلماء إلى « العين» والعين لا تقطع وإنما الذي يقطع هو الجمل ، ولكن العين لما كانت السبب الذي يعين الجمل على السير ، وقطع الظلمات صارت وكأنها المباشرة للفعل ، المنشئة له ، وأسند إليها لقوة تأثيرها في إحداثه .

إنّ الجمل يخرق الظلماء بعينه ولولاها لكانت كالسد الذي لا يجد شيئا يفرّجه به ويجعل لنفسه فيه سبيلا وعبد القاهر يرى أن الاستعانة بطاقات اللغة ، وبوسائل الصياغة قد جعل من مثل الصياغة في البيت الأخير إسنادا بعيدا غير مبتذل ، ولا قريب [(١)].

إن التفنُّن في نظم العبارة هو الذي جعلها تؤدي هذا الأداء الأمثل والأغرب وتستطيع أن تَشْعُر بذلك حين تتابع تحليل الإمام عبد القاهر لصورة المجاز هنا في كتابه دلائل الإعجاز ؛ إذ تراه وهو يأخذ بيدك في رفق ليبين لك السر وراء الامتياز والتفوق في الأداء لهذا المجاز ، فإذا كنت تفهم حقيقة المجاز وهي

(١) انظر : دلائل الإعجاز صـ١٩٣-١٩٨ . طبعة المنار .

أن يجوب الجمل الظلماء بعينه فإن الشاعر قد طوى هذه الحقيقة حين عدل عن إسناد الفعل إلى « الجمل» الفاعل الحقيقي وأسنده إلى « العين» .

الفاعل المجازي أتى به منكرا ليستثمر الخصائص اللغوية في اللفظ ، وليستلب منه أكبر قدر من العطاء يمكن أن يعطيه في بابه ؛ إذ إنّ الإتيان بالنكرة يجعل ما بعدها صفة لها فالجمل بعد النكرات صفات ومن ثمَّ فَعَنْ طريق وصف العين بجملة الصفة تهيأ للشاعر أن يُضْفِي على العين صفات النقاء ، والصفاء ، والسلامة ولو أنه أتى بالفاعل المجازي معرفا لفاته ذلك وفي التعبير بقوله : « له» إثبات أن هذه العين التي تجوب الظلماء إنما هي عين الجمل ؛ إذ إن تنكير العين في قوله : « تجوب له الظلماء عين» قد قطعها عن الإضافة إلى الجمل ، والإتيان بالضمير قد وصلها بالجمل ، فضلا على أن هذا الضمير المجرور قد ربط البيت كله بوصف الجمل وهو غرض الشاعر ، فإذا رأيت الشاعر قد أضاف إلى ذكر الضمير شيئا آخر وهو تقدمه على الفاعل والمفعول : « تجوب له الظلماء عين» المتعلقين بالفعل فاعلم أن ذلك التقديم إنما قد كان للإشارة إلى أهمية هذا الضمير في ربط الكلام بالغرض الذي سيق من أجله .

انظر إلى عبد القاهر وهو يقول في هذا كله : « فأنت الآن تعلم أنه لولا أنه قال : « تجوب له » « فعلق له» بتجوب لما صلحت « العَيْن» لأن يُسْنَد « تجوب» إليها ، ولكان لا تَتَبين جهةُ التجوُّز في جعل « تجوب» فعلاً للعين كما ينبغي وكذلك تعلم أنه لو قال مثلا : تجوب له الظلماء عينه لم يكن له هذا الموقع ، ولا اضطرب عليه معناه وانقطع السلك من حيث كان يعيبه حينئذ أن يصف العين بما وصفها به الآن فتأمل هذا واعتبره فهذه التهيئة وهذا الاستعداد في هذا المجال الحكمي نظير أنك تراك في الاستعارة التي هي مجاز في نفس الكلمة وأنت تحتاج في الأمر الأكثر إلى أن تمهد لها وتقدِّم أو تؤخر ما يُعْلَم به أنك مستعير ومشبِّه ويفتح طريق المجاز إلى الكلمة»[1]

(١) دلائل الإعجاز صـ ١٩٧ .

ومن هذا النوع من المجاز قول كُثَيِّر عزة في أبياته الجهيرة التي ثار حولها الجدل، واحتدمت بسببها الخصومة منذ ابن قتيبة في القديم حتى العقاد في الحديث وكان الإمام عبد القاهر - رحمه الله - ممن أسهب في تحليل هذه الأبيات وكشف عن القيم التعبيرية والشعورية التي فاضت بها في تدفق وغزارة.

وَلَمَّا قضينا مِن مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ ... وَمَسَّحَ بالأركان مَنْ هُوَ مَاسِحُ
وَشُدَّتْ على دُهْمِ المُهَارِي رِحَالُنا ... ولم ينظرْ الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطرافِ الأحاديث بيننا ... وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِيِّ الأباطح

إنّ عبد القاهر يحلل هذه الأبيات تحليلا يستغل فيه كل إمكانات اللغة من فكر، وإحساس، وصوت، وصورة فما من جملة إلا وقف أمامها وذكر ما تتسم به من خصائص، وما تفيض به من قيم، وما تتدفق به من خطرات نفسية وفي كل ذلك يوضح كيف تتعاون كل جملة مع التي تسبقها والتي تليها في أداء هذه القيم.

إنّ صياغة النظم، وتفاعل بعضه مع بعض تفاعلا كاملا في السياق وإظهار ما تحمله الألفاظ من شحنات عاطفية وما توحي به من أحاسيس نفسية هي الوسائل التي تؤثر التأثير المعتد به في الصورة وليس المجال لتحليل هذه الأبيات ولكننا نقتطع منها ما يتصل بحديثنا عن الخاصي والنادر في المجاز العقلي ونتوقف أمام قول الشاعر:

وسالت بأعناق المطي الأباطح

ونعيد القراءة له لنرى هذا المجاز في إسناد الفعل: (سالت) إلى فاعله المجازي (الأباطح) إذ إنّ الأباطح لا يكون منها سيل، ولكن يكون فيها، فليس السيل واقعا منها وإنما واقع فيها، فهي مكان للسيل، وإذا حاولت أن ترد المجاز إلى أصله من الحقيقة وأديته كما تؤدي الحقائق فقلت:

سارت الإبل في الباطح

لرأيت بلاغة الأبيات وهي تَتَبَخَّرُ ، ولرأيت حلاوتها وهي تضيع وتتلاشى لماذا ؟ إن التدفق ، والسلاسة ، واللين ، والرفق ، والسهولة تطل عليك من خلال الفعل «سال» ولو أنه أتي «بسار» لتوارت كل تلك المزايا ولحل محلها عطاء الفعل «سار» مسندا إلى الأباطح (الصحراء) بما فيها من عنت ، ومشقة وكد ، وإرهاق .

إن استعارة (السيل للسير) توقفك على حقيقة المدى البعيد لسهولة السير ، وليونته ، وهذا ما صنعه الشاعر حين استعار (سالت) (لسارت) وحين أسندها إلى الأباطح أضاف شيئا آخر حققه الإسناد وأفاده إذ جعل الأباطح وهي تتدفّق ، وتنهمر ، وتفيض ، وتسيل فأضاف إلى سهولة السير وليونته ، سرعته ، وحيويته ، ونشاطه فإذا ما ذهبت إلى حرف الجر الملاصق للأعناق والمضاف إلى المطي رأيته في دخوله على الأعناق يبرز الموقف العام لسير الإبل حين يُظْهر حقيقة السير من السرعة والبطء لأنهما إنما يظهران غالبا في أعناقها ، ويتبين أمرها من هواديها .

وهكذا استطعت أن تطالع الحسن كلّه من خلال مطالعتك للنظم في المجاز العقلي على النحو الذي جاءت عليه وأدركت من خلال هذا التحليل أن صياغة النظم هي التي تؤثر التأثير المعتد به في الصورة البلاغية ، وأن الإسناد المجازي حين تؤلف أجزاؤه على هذا المثال يكون لونا من ألوان الأداء الراقي والممتاز .

الفرق بين المجاز العقلي واللغوي

تحدث الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة حديثا طويلا تعرض فيه للتفرقة بين المجاز اللغوي والمجاز العقلي ، ولقد أسهب الرجل في ذلك وأفاض وأرجع كل واحد منهما إلى أصله من التسمية وبين عبد القاهر ـ رحمه الله ـ أن الجملة هي مناط الفائدة إذ إليها ترجع ، والفائدة لا تتحقق بالكلمة الواحدة من غير ضمها إلى أخرى .

فلا تحصل بالاسم وحده ، ولا تتحقق بالفعل بدون اسم ، يضم إليه وإنما كانت الجملة مدار الفائدة لأنها تتردد أي الجملة بين النفي والإثبات .

هذا والخبر أول معاني الكلام ، وأقدمها ، وعنه تتفرع كل المعاني الأخرى وهو ينقسم إلى هذين الحكمين : الإثبات والنفي ؛ وكل من الإثبات والنفي يقتضي مثبتا ومثبتا له ، ومنفيا ومنفيا عنه وهما بهذا المعنى ركنا الإسناد المبتدأ والخبر ، والفعل والفاعل ، إذ هما الشيئان اللذان يتعلق بهما الإثبات والنفي ومن ثَمَّ يقال للمثبت والمنفي : مسند وحديث وللمثبت له والمنفي عنه مسند إليه ومحدث عنه .

وبعد أن ظهر ذلك بوضوح فإن عبد القاهر يضع ضابطا يتميز من خلاله الإسناد الحقيقي من الإسناد المجازي ، وعلى كل من يريد أن يقضي في الإسناد بمجاز أو حقيقة أن ينظر إليه من جهتين :

إحداهما : أنْ ينظر إلى ما وقع بها من الإثبات ، أهو في حقه وموضعه أم زال عن الموضع الذي ينبغي أن يكون فيه ؟

وثانيتهما : أن ينظر إلى المعنى المثبت ، أعني ما وقع عليه الإثبات كالحياة في قولك أحيا الله زيدا ، أثابت هو على الحقيقة أم قد عدل به عنها ؟

فمثال ما دخله المجاز من جهة الإثبات دون المثبت قول الشاعر :

وشـيَّب أيـامَ الفِـراق مَفـارِقي وأنشَزْنَ نفسي فوقَ حيـثُ تكـونُ

وأنشزن : بمعنى رفعن : **ومفارقي** : جمع مفرق بزنة مقعد وسط الرأس والمراد هنا جميع الشعر : **وحيث** : اسم بمعنى مكان فهي خارجة عن الظرفية وخروجها نادر .

والشاعر يقول : إن أيام الفراق التي يعاني منها ، ويقاسِي لما فيها من هول آلام السهر والفكر قد أشاعت الشيب في رأسه ، ورفعت نفسه من مكانها حتى بلغت الحلقوم .

والفعل قد أسند للأيام ، والأيام ليست المُحْدِثة للفعل ، وهو الشيب والموجدة له ولكنها زمان لوقوع الحدث والفاعل الحقيقي للفعل هو الله سبحانه وتعالى فالمجاز قائم في إثبات الشيب فعلا للأيام ، وأما المثبت فلم يقع فيه مجاز لأنه الشيب وهو موجود . ومثله : سرَّني الخبر ، وسرَّني لقاؤك فالمجاز في الإثبات دون المثبت لأن المثبت هو السرور وهو قائم على حقيقته، ومثال ما دخل المجاز في مثبته دون إثباته قول الله عز وجل :

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (الأنعام:١٢٢) فالمعنى على أن جعل العلم ، والهدى ، والحكمة حياة للقلوب .

فالمجاز القائم في الإثبات لا يكون إلا في الجملة ؛ إذ هي التي يتأتى فيها التأليف بين محدث ومحدث عنه ، ومثبت ومثبت له والمردّ في ذلك إلى العقل الخالص ؛ إذ إنه يفصل في ذلك ويقضي وليس اللغة ؛ لأن اللغة لم تأت لتحكم بحكم ، أو لتثبت وتنفي وما يعترض على هذه الدعوى من تصديق أو تكذيب هو اعتراض على المتكلم وليس للغة في ذلك مدخل في قليل أو كثير ، وحين يكون المجاز كقوله تعالى : ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ (فاطر:٩) فإنما كان مجازًا لأن طريقه أن أجرى اسم الحياة على ما ليس بحياة تشبيها وتمثيلا واللغة هي التي اقتضت أن تكون الحياة اسما للصفة التي هي ضد الموت ، فإذا تجوز في الاسم فأجرى في غيرها فالحديث مع اللغة .

وعلى هذا النحو يطيل عبد القاهر في بيان التفرقة بين المجاز العقلي والمجاز اللغوي ولا يفوته أن يوضح متى يحكم على الجملة بالمجاز فيذكر أنه لا يجوز الحكم على الجملة إلا بأحد أمرين .

أحدهما : أن يكون الشيء الذي أثبت له الفعل مما يصح أن يكون له تأثير في وجود المعنى الذي أثبت له ، وذلك نحو قول الرجل « محبتك جاءت بي

إليك» فهذا مما لا يشتبه على أحد أنه مجاز ؛ لأن المحبة لا يعقل أن تجيء بإنسان .

ثانيهما : أن يكون قد علم من اعتقاد المتكلم أنه لا يثبت الفعل إلا لله سبحانه وتعالى .

أقسام المجاز العقلي باعتبار طرفيه

عرفت أن المجاز تارةً يقع في الإثبات وتارة في المثبت ، وأنه إذا وقع في الإثبات فذلك هو المجاز العقلي ، وإذا كان في المثبت فذلك هو المجاز اللغوي ، والإثبات يقتضي مثبتا ومثبتا له ، كما أن النفي يقتضي منفيا ومنفيا عنه ، وإذا كان في الإثبات لزم ضرورة ألا يتحقق إلا بالجملة ؛ إذ إنها تأليف بين محدث ومحدث عنه ولابد من هذين الركنين إذ بهما يتعلق الإثبات والنفي ، والمرجع في ذلك إلى العقل المحض ؛ لأنه هو الذي يقضي في هذا الشأن دون اللغة ، وإذا ثبت أن المجاز العقلي لابد له من طرفين عن طريقهما يتحقق الإسناد ، فإنه يتردَّد بين أحوال أربعة تبعا للحقيقة والمجاز في الطرفين معًا أو في واحد منهما :

الأول : أن يكون ركنا الإسناد في الجملة حقيقتين لغويتين والحقيقة اللغوية أن يُستعمل اللفظ في المعنى الذي وضعه له أهل اللغة وألا تتخطى هذا الوضع لا في قليل ولا في كثير انظر إلى قول الشاعر :

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبِيرَ   كَرُّ الغَدَاة وَمَرُّ العَشِيِّ

ترى أنّ المجاز واقع في الإثبات ، إذ إنه أثبت الشيب فعلا لكر الغداة ومر العشى ، والغداة والعشى لا يُوجدَان فِعْلا ، ولا يُنْشِئان حدثا ، وإنما هما زمن لوقوع الحدث فيهما ، وحق الشيب والإفناء أن يسند إلى الفاعل الحقيقي وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ فهو الذي يصنع الشيب كما هو الذي يفعل الإفناء .

ولو أنك توقفت أمام الطرفين لعلمت أن كلا منهما لم يتخطَّ المعنى الذي وضع من أجله إذ إن كل كلمة فيهما قد استعملت فيما وضعت له ، ومثل هذا قولك سرني لقاؤك ، فالطرفان وهما اللقاء والسرور مستعملان في معناهما الحقيقي ، والتجوز إنما هو في الإسناد .

الثاني : يتحقق المجاز في الإثبات وفي المثبت جميعا ، فالطرفان مستعملان في غير ما وضعا له فهما مجازان لغويان انظر إلى قولهم : « أحيتنا مصابيح الإسلام» هل المصابيح تحيي أم أنها تهدي ؟ إنّ الإحياء بمعناه اللغوي المعروف وهو إيجاد الحياة في الحيوان يمتنع تحققه هنا ويستحيل وعليه فإن الفعل « أحيا » قد جاوز معناه الأصلي وتخطاه إلى معنى آخر مجازي هو بسبب من المعنى الحقيقي ممّا صحّح معنى النقل والاستبدال في الاستعارة ؛ إذ إنهما يلتقيان معًا عند الفوائد الجليلة التي تترتب على كل منهما

فإذا تركت هذا الطرف : « أحيتنا » من طرفي الإسناد وذهبت إلى الطرف الآخر « مصابيح » فماذا تجد ؟تجد أن « المصابيح » جمع مصباح بمعنى السراج وهذا المعنى غير مراد هنا وإنما المراد (علماء الإسلام) وصحَّحَ عملية الاستعارة ما بين العلماء والمصابيح من تلاق وتشابه في تحقيق الهداية ، والتوصيل إلى الغاية مما سوغ الالتحام والتفاعل وجعل (المصابيح) تستعار « للعلماء» وتحل محلها ، وتوضع مكانها في توافق وانسجام .

الثالث : أن يأتي المسندُ حقيقة لغوية والمسند إليه مجازًا لغويًا كما لو جوَّزْتَ في المثال السابق فقلت : « هدتنا مصابيح الإسلام » فالهداية لم تتجاوز المعنى الوضعي ، فهي من وادي الحقائق اللغوية التي لا تجوُّز فيها ولا خروج عن أصل معناها ، واضح إذن أن الفعل « هدى» مستعمل في حقيقة معناه ، فإذا ما تركناه إلى الطرف الثاني من طرفي جملة المجاز في الإسناد (مصابيح) لوجدناه مستعملا في غير حقيقته فهو مجاز ، ولا يخفى عليك أن الإسناد هنا مجاز عقلي وأن الفعل فيه مسند إلى سببه فالعلماء لم ينشئوا هداية ولم

يخلقوها وإنما الهادي هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ وما العلماء سوى سبب لهذه الهداية .

الرابع : أن -أتي جملة المجاز ويكون المسندُ مجازا والمسند إليه حقيقة فالطرفان فيهما يتبادلان المواقع مع النوع الثالث خذ قول المتنبي :

وَتُحيِي له المَالَ الصَّوَارِمُ والْقَنَا   وَيَقْتُلُ مَا تحيي التَبسُّمُ والجدَا

وأنت أمام ممدوح قد اجتمعت فيه شدة البطش مع بسطة اليد والتقتا فيه التقاء سعيدا مباركا ؛ فهو يعرف كيف يختصر أعمار أعدائه اختصارا ، وكيف يعمل سيفه في نحورهم وفي أعناقهم ، وكيف يأخذ منهم أموالهم بعد أن ينتزع أرواحهم ، ثم هو مع هذا معطاء كريم يهتز للندى فلا يلبث حتى يوزع ما اقتنصه إلى المعوزين والمحتاجين ، وانظر إلى الشاعر الذي جعل الكثرة ، والوفرة ، والزيادة في المال حياةً ، كما جعل التوزيع والتفريق في العطاء قتلا ؟ وكيف أثبت الحياة فعْلا للصوارم ، وهي مسببة عنها كما أن الصوارم سبب فيها وكيف جعل القتل فعلا للتبسم مع أنه من الوضوح بحيث لا يخفى على أحد أن الفعل لا يصح منه .

فالمجاز واقع في المثبت حين استعار (الإحياء) لانتزاع الأموال من أيادي الخصوم والأعداء ، كما استعار (القتل) لبذل المال وتوزيعه على المعوزين والبؤساء ، فأنت ترى أن المسند قد تجاوز معناه الحقيقي في الموضعين والمسند إليه لم يتعد حقيقة وضعه (فالصوارم والتبسم) مستعملان في المعنى الحقيقي لكل منهما ، ولا يصعب عليك أن تعرف أن إسناد (الإحياء) إلى الصوارم والقنا ، وأن إسناد (القتل) إلى التبسم والجدا مجاز عقلي ؛ إذ إن الفاعل المجازي سبب في حدوث الفعل ، وليس الفاعل الحقيقي له .

* * *

القرينة في المجاز العقلي

سبق أن عرفت أن للفعل ملابسات كثيرة ؛ فهو يلابس الفاعل ، والمفعول به والمصدر والزمان ، والمكان ، والسبب .

وأن المراد بالملابس العلاقة التي بين الفعل وفاعله ، ومفعوله ، ومصدره ، وزمانه ، ومكانه ، وسببه ، ولابد منها أي «العلاقة» لتتضح جهة التجوز كما أنه لابد للمجاز العقلي من «قرينة»؛ إذ هي مأخوذة من قرن الشيء بالشيء جمعه به ، وأصحبه إياه ، والمتبادر إلى الذهن إذا انتفت القرينة أن يكون الإسناد قد جاء على حقيقته ، ولم يتجوز فيه ، فالقرينة هي التي تصرف الإسناد عن إرادة ظاهره ، ومن ثَمّ فإنه يخرج من المجاز العقلي أمران :

الأول : ما طابق الاعتقاد دون الواقع كقول الجاهل : (شيبتْني الهموم) وما هو على شاكلة ذلك من كل فعل أسند إلى غير ما هو له ، ومثل ذلك ليس من قبيل المجاز العقلي لا في قليل ولا في كثير لماذا ؟لعدم وجود القرينة الموجودة في الإسناد والتي تدل على أن المتكلم مُتَجَوِّزٌ في كلامه ، ذلك أن الجاهل لا يقيم قرينة تصرف عن إرادة الظاهر من أسلوبه وكلامه ، وما يظهر من أسلوبه هو ما يؤمن به ، ويعتقده فهُوَ يجعل من الهموم فاعلا حقيقيا للتشييب ومثل هذا قول اليهودي (لا كتاب إلا التوراة) لأنه لا يعتقد غير هذا .

الثاني : ما طابق الواقع دون الاعتقاد ، كقول الأسير اليهودي لآسره المسلم : (محمد رسول الله) ، ومثل قول الكاذب (زارني محمد) وهو يعلم أنه لم يزره فإن إسناد الفعل هنا إلى فاعله ليس من وادي المجاز العقلي مع أنه قد أسند فيه لغير فاعله الحقيقي لماذا ؟لأن إسناد الفعل هنا مع أنه لغير فاعله إلا أنه لا توجد قرينة في الكلام تصرف عن إرادة الظاهر ذلك أن الكاذب إنما يسعى لترويج كذبه وشيوعه وانتشاره ، فهو لا يقيم قرينة على كذبه .

والقرينة تنقسم إلى قسمين : لفظية ، ومعنوية .

فاللفظية أن يكون مع الإسناد لفظ يصرفه عن ظاهره وظاهر اللفظ هو المفهوم منه حقيقة انظر إلى قول ذي الرُّمة :

هل تعرف المنزل بالوحيد ... قفرا محاه أبَدُ الأبيد

والدَّهرُ يبلى جده الجديد ... لم يَبْقَ غيرُ مثل ركود

غيرُ ثلاثٍ باقياتٍ سودِ ... وغيُر باقي ملعبِ الوليد

وأنت تتابع قراءة الأبيات وترى هذا الإسناد قد تحقق من خلال إسناد (المحو) إلى أبد الأبيد ، و(الإبلاء) إلى الدهر ، فتتساءل هل نحن أمام شاعر يقول ما يعتقده ؟ وعندئذ يخرج هذا الإسناد ، فلا يكون من الباب الذي نتحدث فيه وهو الإسناد المجازي ، إذ إنه يجري مجرى الحقائق العقلية التي تسند الأفعال فيها إلى الفاعلين الحقيقيين ، وتبقى على هذا الحال ، فإذا ما وصلت إلى قوله بعد الأبيات السابقة :

حتى استحلّوا قسمةَ السجود ... والمسْحَ بالأيدي من الصَّعيد

فإنك تجد من القرائن اللفظية ما تشعر معها أن المتكلم مؤمنٌ موحّد يسند الأفعال إلى فاعلها الحقيقي فيكون متأوّلاً في إسناد (المحو والإبلاء) إلى (الأبد والدهر) والقرينة الصارفة عن إرادته الظاهر من الإسناد ما تحدث به مما يشير إلى قصر الصلاة ، وإلى التيمم ، ولا يفعل ذلك سوى المؤمن الموحّد إذ إن معنى : (استحلوا قسمة السجود) : جاز لهم قصر الصلاة ؛ لأن في قصر الصلاة اختِصَارًا وقسمتها إلى النصف والمسح بالأيدي هو التيمم ، وعليه فإنهما قرينتان لفظيتان ، على أن منشئ هذا القول متأولٌ في كلامه ، وأنه لا يريد به ظاهره على أن فاعلي الفعلين (محا ، ويبلى) ليسا الفاعلين الحقيقيين لهما . إنما أسند الفعل إليهما من حيث هما زمان أو سبب ؛ لأنهم من قوم يصلون ، ويتيممون ، فلا يظن بهم الإلحاد ، ولا يحسبون عليه ، ولا يدخلون في دائرته .

ومثل هذا المجاز في وجود القرينة اللفظية قول الشاعر :

أَشَابَ الصَّغيرَ وأَفْنَى الكبيرَ ... كَرُّ الغداة وَمَرُّ العشي
لروح ونَغْدُو لحاجتِنَا ... وحاجةُ مَنْ عاش لا تنقضي
تموت مع المرءِ حاجاتُهُ ... وَتَبْقَى له حاجةُ ما بقي

إلى أن قال :

فَمِلَّتُنَا أنّنا مُسْلِمون ... عَلى دِينِ صِدِّيقنا والنَّبِيّْ

واضحٌ أن البيتَ الأخير بما فيه من صريح اللفظ (المسلمون) (النبي) قرينة لفظية تبين لك أن الرجل متأول في كلامه ، وأن هذا من قبيل المجاز العقلي الذي يصرف الكلام عن ظاهره .

القرينة المعنوية :

أن يكون مع الإسناد أمرٌ غير لفظي يصرفه عن ظاهره : أي ألاّ يوجد في الكلام من الألفاظ ما يصرفه عن إرادة الظاهر منه بل يكون الصَّرْف عن إرادة هذا الظاهر خارج اللفظ وذلك لأحد أمرين :

الأول : يرجع إلى ما بين الفعل والمسند إليه كأن يكون قيامه به أو صدوره منه مستحيلاً عقلا أو عادة :

فمثال المستحيل عقلا :

فنام ليلي ، وتجلى همي

ذلك أن النوم لا يقوم إلا بالحيوان ، وقيامه بالليل مستحيل ومثله (طريق سائر ، ونهر جار) ؛ لأن السير والجرى وما يجري على هذا النحو لا يكون من مثل الطريق ولا النهر والمراد **بالاستحالة العقلية** ما يجمع عليه المحققون مما لا يحتاج فيه إلى إقامة الدليل على استحالته ؛ لأن العقل إذا ترك ونفسه فإنه يُعِدّه محالاً .

خذ قول الشاعر :

فَلاَ تَسْأَلِيني واسْأَلِي عن خَلِيقَتِي ... إذا رَدَّ عَافي القِدْرِ ومَنْ يَسْتعيرُها

فإن عافى القدر ما يبقى فيها من المرق ، وهو في زمن الجدب سبب لرد مستعيرها ، وحقيقة هذا الإسناد إذا رد صاحب القدر من يستعيرها بسبب عافيها وعافى القدر يستحيل عليه ردها .

ومثال استحالة وقوع المسند من المسند إليه عادةً (هزم القائد الجند وبنى المهندسون السد) من كل ما يكون المسند إليه سببًا آمرا ، أو آمرا مدبرًا ، والذي يجعل من الاستحالة هنا استحالة عادية لا عقلية أن العادة هي التي جرت في منع صدور المسند من المسند إليه ، ولكن العقل لا يمنع لجواز أن يهزم الأمير بنفسه الجند ، وأن يبني المهندسون بأنفسهم السد ؛ لأن ذلك مما يدخل تحت دائرة الإمكان العقلي :

الثاني : أن ترجع القرينة إلى حال المتكلم في نفسه ، كأن يكون الكلام صادرا عن الموحّد مثل ما ورد عن الرسول ﷺ : « إِنَّ مما يُنْبِتُ الرَّبيعُ ما يقتلُ حَبَطًا أو يُلِمُّ» حبطًا : انتفاخًا ، يُلِمُّ : يقارب .

فصدور هذا الكلام من سيّد المرسلين ﷺ دليل على أنه لا يريد من الإسناد ظاهره ، وإنما هو متأول في هذا فالظاهر أن الربيع لا ينبت وإنما هو سبب أو زمن ما ينبته والربيع لا يقتل وإنما هو سبب في القتل إذ إنه ليس الفاعل الحقيقي له .

استلزام المجاز العقلي للحقيقة العقلية :

هل يستلزم المجاز العقلي الحقيقة العقلية ؟ هذه مسألة دار حولها جدل ، وثار بسببها خلاف ذلك أن مراجعة التراكيب في هذا الباب تثبت أن الكثير منها يمكن الرجوع فيه إلى حقيقته العقلية ، أي إلى ما حقه أن يسند إليه مما أوجد الفعل ، وقام به . خذ هذا المثال الشائع : « أنبتَ الربيع البقل» ترى الإسناد هنا

غير حقيقي ؛ إذ إن الفاعل الموجود ليس هو الفاعل الحقيقي للفعل ، وإنما هو زمن لوقوعه ، والفاعل الحقيقي هو ـ الله سبحانه وتعالى ـ وفي (نام ليلي) تقول نمت في ليلي ، وفي قول ذي الرُّمة :

تَجوبُ له الظَّلْمَاءَ عَيْنٌ كأنَّها زُجَاجَةُ شَرْبٍ غيرُ مَلأى ولا صِفْرِ

يجوب الجمل الظلماء بعينه

وتقول في قول الفرزدق

نَحْمي إذا اختَرطَ السُّيوفُ نِساءَنا ضَرْبٌ تَطيرُ له السَّواعد أَرْعَلُ

نحمي إذا اخترط السيوف نساءنا بضرب سريع يقطع السواعد ، غير أن هناك من التراكيب التي جاءت في هذا الباب ما ترى الإسناد فيها غير حقيقي إذ لم يسند الفعل أو ما في معناه فيها إلى فاعلها الأصلي ، فالإسناد المجازي فيها واضح مشهور ، ولو أنك حاولت أن تَرْجِعَ بها إلى أصلها من الحقيقة في الإسناد لوجدت العرف الاستعمالي يأباها ويرفضها ؛إذ إنه لم يألفها جارية على ما هي له وآدابهم تنطق بذلك . خذ قول الشاعر :

وَصَيّرني هَواكِ وبي لحيني يُضْرَبُ المثلُ

فالعرف لم يألف هنا إسنادا لفعل إلى فاعله الحقيقي وأنت ترى أن التجوّز في الإسناد بادٍ لك وظاهر من خلال إسناد الفعل « صيرني» إلى « هواك» وواضح أنّ الذي صيره ليس هو الهوى وإن كان الهوى سببا في ذلك وعلى أثر قبول العرف لاستعمال بعض الأسانيد المتجوز فيها حين ترد إلى ما حقه أن تجري عليه ، وعدم قبول بعضها إذا لم يألفها الاستعمال وهي جارية على ما هي له انقسم الرأي حول هذه المسألة بين الخطيب وعبد القاهر .

فالخطيب يرى أنّ المسند في المجاز العقلي يجب أن يكون له في التقدير مسند إليه حقيقي يكون الإسناد إليه حقيقة ، إذ إنك حين تراجع تعريف المجاز العقلي عند الخطيب تشعر أن إسناد الفعل إلى غير ما حقه أن يسند

إليه فرع عن الإسناد إلى ما حقه أن يسند إليه ، وواضح أن ما هو له متحقق غير أنه تارة : يكون واضحًا ظاهرا لا يعوز إلى تأمل ، ولا يحتاج إلى جهد مثل قوله تعالى : ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ ﴾ (البقرة:١٦) وليس مما يخفى أن فاعل الفعل الحقيقي مما يدرك بأدنى تأمل إذ إن فاعل الربح هم التجار ، أي فما ربح التجار في تجارتهم ونظرًا لجريان العرف به في استعمالاتهم كان الفاعل ظاهرا ومثله : أخرج الغيث النبات ، وأسا الطبيب المريض فقد شاع في العرف ، وجرى في الاستعمال أن يُسند الفعل في كل منهما إلى الفاعل الحقيقي فيقال : أخرج الله النبات ، وأسا الله المريض . ومن هنا كان الفاعل الحقيقي ظاهرا ويقاس على هذا كل ما جرى العرف في الاستعمال العربي أن يسند الفعل فيه إلى الفاعل الحقيقي .

وتارة : يكون المسند إليه خفيا لا يدرك إلا بشيء من التأمل مثل قولهم : « سرتني رؤيتك » و« وأمتعني حديثك » وقول الشاعر :

يَزِيدكَ وَجْهُه حُسْنًا إذا ما زِدْتَهُ نَظَرا

وبالتَّأَمّل تجد أن ما ذكر من فاعلين لهذه الأفعال ليسوا الفاعلين الحقيقيين لها ، فلا الرؤية ، ولا الحديث ، ولا الوجه كلها بفاعلة وإنما الفاعل الحقيقي هو ـ الله تعالى ـ لكن كثر وشاع عند العرب إسناد هذه الأفعال إلى الفاعل المجازي وإهمال إسنادها إلى الفاعل الحقيقي وهو الله مصدر الأفعال كلها إذ هو الفاعل الحقيقي إذ عنه يصدر كل شيء .

ويرى الإمام عبد القاهر ورأيه مبسوط في كتابه دلائل الإعجاز أن المجاز العقلي ضربان :

أحدهما : أن يكون للفعل فاعل في التقدير إذا أنت نقلت الفعل إليه عدت به إلى الحقيقة مثل قولك في « ربحت تجارتهم » ربحوا في تجارتهم فأنت قد رجعت بالإسناد في الأسلوب إلى ما حقه أن يسند إليه من الحقيقة الفاعلة .

الثاني : أنه ليس بواجب أن يكون لكل فعل فاعل في التقدير إن أنت نقلت الفعل إليه عدت به إلى الحقيقة ذلك أنه لا يمكنك أن تثبت للفعل في قول الشاعر :

وَصَيَّرني هَواكِ وبي   لحيني يُضْرَبُ المثلُ

فاعلا ظاهرًا قد نقل عنه فجعل للهوى .

وعبد القاهر حين ينظر في مثل هذا المثال يرى أن العرف في الاستعمال لم يألف له فاعلا حقيقيا ، فيسند الفعل فيه من أول الأمر إلى فاعله المجازي ؛ لأن تقدير الفاعل الحقيقي مما لا يقصد في الاستعمال العربي ، ولا يتعلق به الغرض في التراكيب ، ذلك أنه لا اعتداد لما لم يجر به عرف أهل اللغة في الاستعمال العربي ، إذ هو بمنزلة العدم لذا كان مثل هذا الإسناد بمثابة المجاز الذي لا حقيقة له .

* * *